

كتاب ثقافية

التخصيص العربية
في الأدب والتاريخ

بقلم:
أنور الجندي

الشخصية العربية

في الأدب والتاريخ

بقلم:
أنور الجندى

الشخصية العربية

في الأدب والتاريخ

عاشت « الشخصية العربية » واضحة الملامح خلال تاريخها كله . منذ كان للعرب كيان . هذا الكيان الذي يمتد إلى ما قبل الاسلام حيث كان يتمثل في الشهامة والارحية والكرم وحماية الذمار . والوفاء بالوعد . والمناداة إلى النجدة . ونصرة المظلوم .. فلما جاء الاسلام أعطى هذه الملامح قوة ووضوحا ودفعها إلى الاستمرار وأمدّها بالحياة .

وفي خلال هذا الزمن الطويل ، عبر القرون ، لم تفقد « الشخصية العربية » ملامحها ، وإن أصابها الضعف والذبول أنا بعد آن . كانت لا تلبث أن تستعيد قوتها الجارفة ، عندما يظمر في أفقها « منقذ » جديد ، يملأ روحها بالاشعاع ويشحن بطايراتها بالكهرباء . ويدفعها لكي تستعيد ما فقدته من الارض ، فاذا هي بعد قليل في مكانها المرموق .

والحقيقة الكبرى التي نريد أن تؤكد لها هنا أن شخصيتنا العربية لم تحتل الذل، إلا بقدر ما كانت تتأهب لدفعه، ولما لم تكن لم ترض عنه يوماً، ولم تنحن له أبداً. وأنها حطمت كل قيد في سبيل الحرية، وأنها كانت دائماً الثورة على الظلمة والطغاة، دائماً المقاومة لهم.

ومهما يكن الجهاد في سبيل الحرية والكرامة قد استنفد شطراً كبيراً من جهدنا ولمكانياتنا، فإنه جعل الدعوة إلى الحرية طابعاً من أبرز خصائصنا.

ولم تقبل «الشخصية العربية» الانصهار في أية قوة غازية، وظلت ملاعبها قوية لا تتأثر، حدث هذا بالرغم مما بذلت هذه الموجات التي توالى عليها في عنف.

لقد قاومت العثمانية والعربية كل مقدراتنا، قاومت اللغة والتراث وحملت عليه في تعصب بالغ، وحاولت أن تجعل لغتها لغة الدواوين والقوانين والمحاكم والمدارس، ولما كان ذلك كله تبخر كالهواء وذهب كالزبد، ولم تكن له من نتيجة إلا أنه دفع «الشخصية العربية» في عناد وإصرار لتحافظ على مقوماتها. وقد عاشت «الشخصية العربية» في ظل العثمانيين أربعة قرون

كاملة لم تتحول قط ملاحظها ، ولم تستطع تركيبها أن تذكرها على هذا التحول .

والشأن في هذا شأن الغربية الجائحة ، التي حملت لواء الإلحاد والاباحه والتغريب والاستشراق والتبشير . وحشدت قواتها في أثواب العلماء والتجار والمدارس والمستشفيات والصحف والكتب ..

وكانت الحملة هذه المرة ضخمة قائمة على أسس نفسية وأساليب علمية ، تحاول أن تنقص من قيمة تاريخنا ، وتفض من حاضرنا ، وتصورنا في صورة الشعب المحتل الذليل على توالي العصور ، وتنظر إلى مقدراتنا في سخرية ، وتفند تراثنا في تشكيك وكانت موجة عاتية نادى فيها دعاة التغريب بالفرعونية في مصر والاشورية في العراق والفينيقية في الشام والبربرية في المغرب .

ومع ذلك فقد تحطمت الموجة على صخرة الشخصية العربية العاتية الجبارة التي عاشت تستقبل مختلف الموجات والتيارات فلا تتأثر بها إلا بقدر ما تريد لتضيف إلى كيائها جديدا ، وقد أتاح لها هذا الطابع الاستقلالى الواضح إذابة هذه المذاهب جميعا

في بوتقتها دون أن تتحول معالمها الأصلية .

- ٢ -

وتمر السنوات على « الشخصية العربية » في ظل حكم الطغاة أو المستبدين أو المستعمرين حتى يخيل للمراقبين لها انها استقامت إلى الذل . ورضيت بالهوان . ثم إذا بها تتجمع بقبضتها القوية ، لتنزل بالعدو ضربة مذهلة . وإذا بالثورة تنفجر فيها قوة عارمة مزلزة يدهش لها الناس ويعجبون لروح القوة والحيوية الكامنة في أعماق الشخصية العربية .

وكذلك رفضت « الشخصية العربية » الذل والهوان ، وفرضت نفسها على المستبدين ، وكانت عندما لا تجد وسيلة لتحطيمهم تسخر منهم . وتنظر إليهم في استهانة واستخفاف . فهي لم تقبل حكم الطغاة يوماً واحداً في رضى ، ولم تدن بالولاء لآى بيت من بيوت الاستبداد التى صنعها الاستعمار على طول « السكورنيش العربى » من طنجة إلى الاسكندرونة .

كانت تراهم غرباء ، وكانت تراهم طغاة ، فنفرت منهم ، ولم يستطيعوا أن يكسبوا ودهتها .

- ٦ -

واقعد كنا دائماً من صنع أنفسنا . ليس لمؤثر خارجي فضل علينا . كنا ثمرة طبيعية لمجموعة من المقومات العزيزة الكريمة . نعطي للعطاء المجرد ، فلا نطالب جزاء لقاء مانعطيهِ . نخاصم القوى في عنفوانهِ ، ونعفو عنه عندما يسقط ، فينبأ الشهامة التي تدفعنا إلى مناصرة الضعيف على الدوام ، شهامة مستمدة من الشجاعة على بحاجة القوى والغاصب . وفيما تراحم . وفيما ترابط بالاهل والارض . وقد حفظ هذا شخصيتنا من التلاشي في غيرها ، رغم الجهود التي بذلت لصهرها ، وتوالى عهود الطفيلان عليها . .

وكان كرمنا العربي الاصيل جزءاً لا يتجزأ من صميم خلقنا العتيق . وكانت قدريتنا الخالدة تقينا من اليأس وتملأ قلوبنا بالرضا . وظلت شخصيتنا العربية طوال حياتها تتقبل الافكار والنظريات والتيارات الجديدة ثم تصيغ منها ما يتفق مع كيانها فتحوله إلى طبيعتها . وهي في هذا تخلق وتصنع . ولا تستسلم قط . كانت تغربل كل جديد وتذيبه في أعماقها وتظل مع ذلك قوية . لم يتغير لونها ولا طابعها ولا روحها تحت تأثير الجديد الوافد . كانت دائماً تغربل وتفحص وتنقد في بقطة . لم تكن متمسبة بالصورة التي ترفض الجديد . ولم تكن متساعمة بالصورة التي تجمعها لتلاشي في مذاهب الدنيا وأفكارها .

ولقد أهدت شخصيتنا العربية إلى العالم ، الحضارة ، أمسكت
 بالخيوط الأول منه في أكثر من مكان من أرضها . في مصر والشام
 وبين النهرين . فقد قامت في هذه الأرض حضارة بابل واشور
 والفينيقيين والفراعنة . ثم امتدت منها أضواء الحضارة إلى العالم .
 ثم عادت إليها من بعد مرة أخرى لتحميها من ظلمات القرون
 الوسطى وبربرية الوندال في قلب أوروبا المعتمدة المظلمة ، ثم زادت
 في هذه الحضارة واضفت عليها جديداً . . ثم ردتها إلى العالم مرة
 أخرى . . قال شبنجلر : إن الحضارة العربية شملت البابليين
 والاشوريين والفينيقيين والآراميين واليهودية والمسيحية . وقد
 بلغت كمالها وتبلورت بظهور الإسلام وتأسيس الدولة العربية .

— ٣ —

تختلف شخصيتنا العربية عن غيرنا حتى لتكاد تتعارض
 معارضة تامة . عندنا القناعة والرضا والإمتهان بالحق لا نحب
 اذلال غيرنا ولا امتهانه وإذا تنافسنا في ميادين الشرف بحيث
 لا نعدو الاعتدال . وليس لدينا مركب النقص الذي يدفعنا إلى
 شعور العظمة الجوفاء ، ولا روح الفرور . وليس لدينا التعصب
 الذي ينسحق الحق ، وكنا دائماً لا ننظر إلى الناس على أنهم أقل

منا . بل لقد كنا نرى الناس سواسية لا يتفاضلون إلا بالعمل .
وإذا قدرنا عفونا ، ولسنا نندفع إلى العدوان والغدر ولا نطمع
فيما في يد الغير . ولا نبدا بالعدوان . ولكن إذا واجهنا العدوان
تلقيناه بعدوان مثله وانتصرنا لحقنا . وأدبنا الباغي علينا .

لقد قاومت و شخصيتنا العربية ، في فترات الضعف التي كانت
تفرض عليها ، فقد كان الطغيان يصنع الذل والجوع يقتل الكرامة
والاستبداد يعلم الخوف ، والاستغلال يفقد العمل الشريف
معناه . ولكننا لم نستسلم طويلا ، كانت هناك هبات ضخمة ،
عبر الاجيال ، تنفض غبار السنين . وفي خلال القرون الطويلة .
كانت أجيال شعبنا تكافح وتناضل . وكان الشهداء يسقطون على
الأرض ويجوارهم أعلامهم مضرجين بالدماء ، ولكن لا يستسلمون
أبدا ، كانت المعارك لا تنقطع بين مد وجزر ، وتقدم وتأخر ،
ولكن قوى المقاومة فيها ظلت تخفق وتنبض . كانت الجوع تحشد
ولا يستطيع البارود أن يخلق تقدمها ، أو يخفف صيغة الحرية
تنطلق من صدورنا ، ولقد كان الاستعمار عامل يقظة لشخصيتنا
العربية ، دفعها إلى الكشف عن حقيقة جوهرها الذي أختفى زمنا
تحت ركام الأحداث فتنادت إلى الوحدة والقوة .

لقد كان العدوان يدفعنا دائماً إلى التضادى والتجمع ، أن
كربات ، الوحدة ، قائمة في أعماقنا وفي ضمائر شعوبنا . وهي في
وقت الخطر تتجمع وتلتقي وتنسى كل شيء . كانت شخصيتنا
العربية تعلم أن أي جهد للوحدة والعمل والبناء لا يتم إلا في حماية
جيش قوى ولذلك كنا عندما نعمل في ظل جيش قوى ننجح
ونعود سيرتنا الأولى في القوة والمنعة .

— ٤ —

وحاول المستعمرون أن يقتلوا في الشخصية العربية روح
المقاومة فلم يستطيعوا مطلقاً . عجزت كل المحاولات النفسية
والسياسية القائمة على العنف والاغراء كما عجزت كل المحاولات
في تفسيح الضرورة أو سحق وحدتها . كانت كل محاولاتهم تنطوي
ولا تترك أثراً . ولقد عاشت الشخصية العربية وسبق متحررة
من جميع المذاهب الأجنبية سواء أكانت هذه المبادئ الماركسية
أو الفاشية أو العنصرية أو الاستعمارية أو الاتحادية والتي تصادف
إن كانت جميعها مبادئ نمت أصولها في أوروبا .

وأجبرت الشخصية العربية بحجرونها وحيويتها الأمراء على
أن يشركوها في حكم بلادها ، فقد وقع الأمراء في أواخر القرن

الثامن عشر وثيقة بناء على رغبة الشعب قالوا فيها : إن الأمراء
تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه الناس .

وقال عمر مكرم أحد الذين تتمثل منهم الشخصية العربية
للوالى التركى عندما عزله الشعب عام ١٨٠٥ هـ إن للشعوب طبقاً
لما جرى العرف به ولما تقضى به أحكام الشريعة الإسلامية
الحق فى أن يقيموا الولاية . ولهم أن يعزلوه إذا انحرفوا عن
مبنى العدل وساروا بالظلم لأن الأحكام الظالمين خارجون عن
الشريعة ، كما حاول عرابى عزل الحاكم الظالم ، كما عزله جمال
عبد الناصر فعلاً .

وعرفت الشخصية العربية حقوق الإنسان قبل أوروبا .
وكانت رحمة للعالمين عندما انبثت فى الأرض ، فضيقت حدود
الرق وأعطت المرأة حق الحياة ، وأعلنت حرية العقيدة وحمات
لواء حركة الفكر فى القول أو الرفض بالاقناع والدليل .

وحفظت شخصيتنا العربية الحضارة الإسلامية من الفناء
والضياع وردت خصوم الحضارة من التتار والصليبيين ، لقد
حافظت شخصيتنا العربية على تراث اليونان وزادت فيه .

وفي د غين جالوت ، هزمتنا التتار ولأول مرة ينهزم التتار
في معركة خلال أربعين قرناً . وفي د حطين ، هزمتنا الصليبيين
لأول مرة . هزمتنا تلك الجحافل وجعلناها تقاسى مرارة الهزيمة ،
إنها شخصيتنا التي دمرت قلاع الموت وأذلت رقاب الانجليز
والفرنسيين في عهد ريتشارد ولويس وأسرت ملكهم لويس
وقتل مجرمهم ارناط . . وسجلت العار على الغادرين في معارك
دمياط والمنصورة ورشيد وبيت المقدس .

إنها شخصيتنا العربية التي حمت الحضارة كلها من الدمار .

وأظهرت الشخصية العربية أبطالاً قاوموا الظلم وحطموا
صروحه . وكان الشعب بطل المعركة دائماً . وقد عرفنا بهبات
التحرر بعد الاستعباد والاعتزاز بالكرامة ، دون قبول الضيم ،
والصمود وقت المحنة . وكانت بلادنا الساحل القوي الذي ترتطم
على أطرافه الموجات والتيارات .

— ٥ —

كان موقع الشخصية العربية فريداً ، في ملتقى البحار
والقارات ، فكانت لواءة العالم الإسلامي ، ومنار الشرق ،

— ١٢ —

عاشت لاشرقية ولا غربية..لقد التقت شخصيتنا العربية بالهكسوس
والصليبيين والتتار والفرس والانجليز والفرنسيين وقاتلتهم جميعاً
بجلد وشهامة وثبات حتى دحرتهم .

وعرفت شخصيتنا العربية الرد على الضربة بضربة أضخم
منها ، والعين بالعين والسن بالسن . ولم تعرف شخصيتنا العربية
الضيم كما لم تعرف أن تتلقى الأوامر من أحد من الغاصبين .

واقدر كان أبرز ملامح شخصيتنا العربية في ابان قوتها ونضوجها
مخاطبة العقل بدلاً من العاطفة . والشعور بأننا سادة لا عبيد .
والاعتماد على المبادئ لا الأشخاص . واليقظة التي لا تنخدع ،
فلما ضعفت شخصيتنا استبد بنا التواكل أمدأ طويلا . وجنحنا
إلى العبودية حتى ظهرت أثار الميائط على ظهورنا . وأوجد
الاستعمار فينا طغاة ومستكبرين ومستسلمين و، كنا نخدع للمظاهر
ويهرأ أنفسنا البريق الخاطف ، ويستأثر بلبنا الحجم الضخم ،
والصوت الجهير دون أن تعرف جوهره .

ولكننا مع ذلك كنا لا نصل أبداً إلى الحضيض . كنا نفقد

توازننا في فترات الضعف ولكننا لا نقع على الأرض ، وكنا نواجه التيارات والظروف والمحن ، ولكننا لا نستسلم لهذه التيارات لتجرفنا ، وصمدنا للزلازل العنيف مرار ومرات .

ومن ملاحظ شخصيتنا هذه المنطقة التي نعيش فيها بين آسيا وأوروبا وأفريقيا .. منطقة موحدة متشابهة من ناحية المناخ والسواحل والخصب . فيها منابع الثروات ، وهي مقصد كل قوة غالبة ، الرومان والفرس والأتراك وأوروبا وأمريكا .

ولقد كانت منطقتنا مسرح الشخصية العربية ، وحدة قديمة ممتدة طويلة الاجل من قبل الحضارات ؛ وحدة جغرافية وتاريخية فيها تقارب التفكير وتشابه أسلوب الحياة . والتقاء في الآمال والاخلاق ، كان لنا طابعنا الخاص في الحضارة والحياة والبناء والرى والسياسة . ثم جاءت الاديان فأعطتنا هذا الطابع الروحي النقي الذي لا يوغل في الجود ولا يسرف في المادية ، ويوازن بين العقل والعاطفة . وكان لشخصيتنا العربية أثرها في الحضارات المصرية والاشورية والبابلية التي وضعت الاسس للحضارة العالمية .

ولقد علمتنا الاديان القواعد التي يقوم عليها التعاون بين

البشر فلم تكن في حاجة إلى مبادئ مستوردة .

ولقد عاش الايمان في العرب يمنح ويدفع . وهضى القلق في الغرب يدمر ويحطم . ولم يكن عند العرب كموتية ولاوساطة بينهم وبين الخالق كتملك التي يعرفها الغرب .

ولقد كانت شخصيةنا العربية تعرفه وقفها من الشرق والغرب دائماً . لم تكن تعادى من أجل مصالح أحد لم تمكن تهاجم ، ولاكنها كانت تدفع عن الرقعة إلى آخر طلقة وآخر رجل . ولقد كانت الكلمة الطيبة عندنا - ولا تزال - أكبر من أى مبلغ من المال .

كان خصومنا يقولون لنا في ساعة الضعف : أن الامل الوحيد لكى نكون أقوياء أن نسير فى ركاب الأقوياء . ولكن الشخصية العربية ، كانت ترفض هذا الرأى ، لأنها كانت تؤمن بأنها تملك من أسباب القوة ما يجعلها قوية بذاتها .

ولقد ثبت للعالم كله بأكثر من دليل أن العربى ، لا يقل قدره فى ركوب الاخطار وقهر العقبات والتحديات فى الافاق والغوص إلى الاعماق عن غيره من الجنس البشرى الذى يدل أحيانا بنفسه ويتعالى .

ومن ابرز معالم شخصيتنا العربية : الاخلاص والايان بالله واجتماع الراى والارادة . والسخاء فى البذل والتضحية . وما من امة ابدت من التسامح والتساهل والحرية ، كما فعلنا ، وما من امة تحررت من الجود والقيود كما تحررنا .

ومن ابرز ملامح « شخصيتنا العربية » : شدة الحساسية وصفاء النفس والاصرار على المواقف الصحيح ففى لا تقبل فى مجال الوطن مساومة ولا تسامحا ولا انصاف الحلول . لا تهزها نشوة النصر ولا يستخفها غرور الفوز . ولا تحطمها مرارة الهزيمة فتدفعها إلى اليأس . تراها دائما على استعداد لخوض المعركة من بدايتها إلى نهايتها . تؤمن بالنصر وسط الظلام الحالك . وتسيطر على أعصابها فى أشد الاوقات قسوة ، تحس بالخطر الذى يهددها وهو فى طريقه إليها ، ومن ابرز ملامح شخصيتنا اننا لا نترك ثأرنا أبدا مهما تقادم عليه الزمن ونزد اللطمة التى توجه إلينا بلاطمة أقوى منها .

ولقد كانت « الشخصية العربية » واضحة فى أنها تجمع ولا تفرق . وتحمى ولا تهدد . وتصون ولا تبدد . وتقوى ولا تضعف . وتوحد ولا تفرق . وتسالم ولا تفرط . دون ان

تتعصب أو تنحزب ودون أن تنحرف أو تنحاز .

وعرفت شخصيتنا العربية ان الامة الحية لا تتهاون بعد ساعة النصر أو تراخي ، انها في ذروة شعورها بالقوة تدرك ان النصر الذي حققته انما هو مرحلة على الطريق وليس هو بحال من الاحوال . خاتمة المطاف .

ولعل ابرز ملامح شخصيتنا العربية في مراحل اليقظة والتجمع هو الامل ، كانت توقظنا الاحداث فإذا بالنبض يعود إلى قلوبنا . وإذا بنا نتجه إلى الايجابية الحية ، ونصيح في سباق مع الزمن ، فنعوض ما فات . ونحقق في سنوات قليلة ما فاتنا في سنوات كثيرة وفي هذه المرحلة يكون علينا ان نبني لنعوض الماضي ولنواجه الحاضر ولناحق بالمستقبل لقد كان يتعين علينا أحيانا ان نصبح الزمن .

- ٦ -

ولم تستسلم الشخصية العربية ، أبداً أو حاربت في سبيل المحافظة على كيائها . حاربت كل من حاول بسط سلطانه عليها . ولم تلبث أن طوته في بوتقتها . فعات ذلك مع الغرم والاغريق

والروم والأتراك والفرنسيين . فعلت ذلك مع دارا وقيصر
والاسكندر ونابليون . وحاربت الأتراك في خمس معارك ضخمة
ولم تنهزم إلا بالخيانة . وفي الفرس كما في الهكسوس والليبيون
والاشوريون في « الشخصية العربية » .

وفي الوقت الذي ارتبطت فيه منطقةتنا العربية بالفرس والروم
والترك مئات السنين حالت قوتها الذاتية دون ذوبانها وبقيت
لها لغتها وملاعها كاملة . وبذلك تجلبت مناعتها وقدرتها على إذابة
الشعوب فيها وافنائها في بوتقتها .

وحاولت شخصيتنا العربية الخلود فاقامت المساجد والمعابد
والكنائس . ودعت إلى التوحيد . وجمعت أهرام مصر إلى
قصور تدمر ، إلى سد مأرب ، وعرفنا المسلة في المعبد والبرج
في الكنيسة والمئذنة في المسجد .

وكانت دعوتنا إلى التوحيد باكرة قبل الأديان ، فلما جاءت
كانت المعاني الروحية توازن المعالم المادية وتحول بينها وبين
التميع من ناحية والتجمد من ناحية أخرى .

ولقد أريد للشخصية العربية ان تنصرف بالنزعة الروحية إلى

الصوفية المتجردة عن المادة أو العصبية المستبدة بالعاطفة بما يتعارض مع التفكير العقلي ، ولكنها استطاعت ان تعتمد للمقاومة وتحفظ بمعالم نزعتها الروحية بعيدة عن الانحراف .

انها خصائص أصيلة في أمتنا . ملامح صادقة في شخصيتنا قد حجبتها في بعض فترات التاريخ بعض الأغراض الطارئة ثم لم تلبث ان تعود وضاء مشرقه حتى ليقول لديمون فرخياس « إن هؤلاء الذين ذهبوا إلى بلاد العرب هالهم مارأوا من ثبات العرب وهدوءهم أمام تلك الخطوب والكوارث التي تودي بحياة الملايين .. »

ولقد كان للشخصية العربية دائما حصيلة ضخمة من الايمان بالمثل العليا والتاريخ الطويل الحافل بالاجاد ومعالم القوة في المقاومة الدائمة .

ولم تتلوث الشخصية العربية بمدنية الأتراك ولا بمدنية أوروبا . ولم تفقد شخصيتنا وسط تيارات المدينيات المختلفة الوافدة من الخارج .

وخلاصة القول ان أبرز ما تتميز به الشخصية العربية

اليوم معالم أربع : القدرة على مقاومة التميع في السيارات الوافدة ،
والخذر من كل ما هو غربي من الافكار والآراء والمذاهب ،
فقد كان الاستعمار دائما يقدم لها السم في صورة من الصور
البراقة الحلوة ، واليقظة الدائمة حتى لا تقع فريسة لعدوان
جديد ، وفيه ذلك التحفز لمواجهة اللطمة التي توجه إليها من العدو
بلاطمة أشد وأقوى .

في مرحلة القيادة

في مرحلة القيادة

ليس هذا تاريخاً . ولا هو بالبحث العلمي وإنما هو حديث قوامه الايمان بشخصيتنا العربية والثقة بأننا قد صنعنا الحضارة قديما في مصر ، ثم تلقفناها من اليونان والرومان لحفظناها وزدناها ، وكنا في خلال قرون طويلة وفي هذه المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط قادة الفكر وسادة العالم ومعلی الشعوب وما نزال أجدنا حية نابضة بالقوة كالمنار تهدي وترشد . وترسم للعالم صورة الكرامة والرجولة والایثار والوفاء والبعد عن الدنيا والترفع عن الذل والحقد والغدر .

واليوم ونحن نستعيد مجدنا ونأخذ مكاننا وتجتمع في سبيل مستقبل ضخم نرى أن الدور دورنا لنصنع الحضارة الجديدة التي يترقبها العالم، الحضارة التي طالما تطلع إليها أصحاب المدنية الفاضلة ، الحضارة التي تقوم على الشرف والكرامة والمساواة ونصرة المظلوم وتأيد حق الضعيف .

إننا نحن وحدنا الذين نستطيع أن نقدم الضياء للانسانية في هذه الجولة بعد أن كاد يعميها الجشع والظلم والطغيان والحرب .

في ميدان الحرب

نحن العرب الذين قال رجل منا : « أحب من الرجل إذا سيم الخسف أن يقول « لا » بملء فيه . نحن الذين قال عنا خصومنا : « رأينا قوما الموت أحب إليهم من الحياة . والتواضع أحب من الرفعة : أميرهم كواحد منهم . لا يعرف رفيعهم من وضيعهم . ولا السيد من العبد . وإذا حضرت الصلاة فلا يتخلف عنها أحد . يغسلون أطرافهم ويخشعون في صلاتهم . »

نحن الذين فتحنا الدنيا فلم نفرض على الناس شيئاً . ولم نستكبر أحداً . وأبجنا حرية العقيدة . وحمينا البيع والكنائس والمعابد .

نحن الذين ترك قائدنا دخاله لاهل المدن المفتوحة إدارتها . نحن الذين سمع قائدنا من يقول : ما أكثر الروم وأقل العرب . فغضب وصاح « بل ما أقل الروم وأكثر العرب . إنما يكثرون الجنود بالنصر . وتقل بالخذلان .

نحن الذين قال أبو بكر لقائد من قوادنا : إذا قدمت على جندك فاحسن صحبتهم . وأيدهم بالحير وعدم آياه . وإذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . وإذا قدم عليك رسل عدوك فاكرمهم وأقال لبثهم حتى يخرجوا من معسكرهم وهم جاهلون به وامنع من قبلك من محادثتهم وكن أنت المتولى الكلامهم واسهر بالليل مع أصحابك تأتيك الاخبار وتكشف عنك الاستار وأصدق اللقاء ولا تخب فيجب الناس .

نحن الذين عندما طلب قائدنا من الخليفة إرسال مدد إليه . أرسل إليه أربعة رجال وقال له : قد أمددتك بأربعة آلاف . فيها أربعة رجال الواحد منهم بألف رجل وهم : الزبير بن العوام وعبادة بن الصامت . مسلمة بن مخلد . والمقداد بن الأسود .

نحن العرب الذين رسمنا لقادة الحرب أعظم صورة من صور البطولة في ذلك الخطاب الذي وجهه أبو بكر إلى عمرو ابن العاص :

« قد وليتك هذا الجيش فانصرف إلى أهل فلسطين وكاتب أبا عبيدة وانجده إذا أراك ولا تقطع أمراً إلا بمشورته .

اتق الله في شرك وعلايتك واستجبه في صلواتك . فانه يراك
 في عملك وأرد بعملك وجه الله ، وأياك والوهن . واياك أن
 تقول رمانى ابن قحامة في نحر العدو ولا طاعة لى به . واعلم يا عمرو
 أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم واعرف
 حقهم ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : انما ولانى أبو بكر
 لانى خيرهم . واياك وخدائع النفس وكن كأحدهم وشاورهم
 فيما تريد من أمرك . والصلاة ثم الصلاة . أذن بها إذا حل وقتها
 واحذر من عدوك . ومر أصحابك بالحرص . وكن أنت بعد ذلك
 مطلعا عليهم أطل الجلوس بالليل إلى أصحابك . وأقم بينهم . واتق
 الله إذا لاقيت العدو . وقدم قبلك طلائعك فيكونوا أمامك .
 وإذا وعدت فأوجز . وأصلح نفسك تصلح لك رعيتك .
 وإذا رأيت عدوك فأصبر ولا تتأخر وألزم أصحابك قراءة القرآن
 وأعرض عن زهرة الدنيا .

نحن العرب، الذين علمنا الدنيا الفروسية التي كانت شروطها
 التقوى والشجاعة والقوة والفصاحة والمهارة في ركوب الخيل
 والسيف والرمح والقوس . والتي كانت من أقوى ما نقله الصليبيون
 من العرب .

نحن الذين فككنا الحصار عن قلعة أزيكا بعد أن وجدنا أن
التي تدافع عنها امرأة . نحن الذين كنا كراما عندما أسرنا لويس
التاسع في المنصورة ووضعناه في دار القاضي نجر الدين ابراهيم
بن لقمان فأمناه وفككنا أسره هو وزملائه دون أن
يصيبهم أذى .

نحن الذين هزمنا الصليبيين في موقعة حطين ، . والتتار في
« عين جالوت » .

نحن الذين كان قائدنا صلاح الدين وفيما كريمًا بملوك أوروبا
بعد هزيمتهم فأعفى العجزة والفقراء والشيوخ من دفع الفدية وأسمح
مع النساء وأرسل الطبيب لعدوه رثشرد قلب الأسد . وسمح
للطريق أن يخرج سالما - وهو عدوه - ودمه تحفه وكوزره دون
أن يتعرض له أحد .

نحن الذين حرقنا مراكبنا بعد أن عبرنا حدود الاندلس
بقيادة طارق وعبرنا جبال البرنية بقيادة موسى بن نصير .

نحن الذين حاصر قائدنا بسر بن ارطاه بأسطوله القسطنطينية
ثلاث سنوات متواليات .

نحن العرب كنا سادة البحر في القرن الثالث الهجري فغزونا
بمعاوية جزيرة قبرص . ثم غزونا صقلية ورودرس واقريطش
وسردانية وجزائر البليار .

نحن الذين قبضنا على ناصية المياه الجنوبية والوسطى في ذلك
البحر الشاسع الذي كان يتوسط العالم القديم .

نحن الذين غزونا روما مدينة القيصرية مرتين ، وغزا بحارنا
المسلم د غلام زرافه ، ثغور الدولة البيزنطية . واقتحم د مجاهد
العامري ، وأبو القاسم الشيعي عاصمة الروم .

نحن الذين استعملنا النار اليونانية في حصارنا للشواطئ
الإيطالية وجزائر البحر الأبيض وفي معارك الصليبيين وفي معارك
دمياط . فادهشنا خصومنا وزلزلنا قواعدهم .

نحن الذين بنينا الأساطيل الضخمة واتخذنا من ثغور أفريقيا
دورا للصناعة البحرية لبناء السفن المختلفة .

نحن الذين بسطنا سلطاننا على صقلية والمقاطعات الجنوبية من
إيطاليا وجبال الألب وجنوب فرنسا فترة لا تقل عن قرنين حيث
حفرنا اسمنا بحروف من نار في كل مكان هناك . وجعلنا إيطاليا
مركزا من مراكز الثقافة العربية .

نحن الذين أدخلنا إلى فرنسا وإيطاليا أكثر الاصطلاحات البحرية في القابضباطها وتعابيرها الحربية واستعمال بارود المدافع والقنابل والحراقات والقذائف واصطلاحات الصيد وعلم الفلك وأسماء الكواكب .

نحن الذين تركنا في أسبانيا آثاراً للفروسية والحرب والشهامة .

نحن الذين قابل رجالنا ، يزدجرد ، امبراطور الفرس يحملون له دعوتهم فقال لهم : لا شيء لكم عندي . ثم أمر بوقر من تراب وقال : اخلوه على أشرف هؤلاء . ثم سوفوه حتى يخرج من باب المدائن . وصرخ فيهم قائلاً : ارجعوا إلى صاحبكم فاعلموه انني مرسل إليه ، رستم ، حتى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسية .

واهتز عاصم بن عمرو فرحاً . وتقدم من الامبراطور . وحل التراب على عاتقه وهو يقول . أنا أشرفهم . أنا سيد هؤلاء ، وسار يحمل التراب . وركب راحلته وانطلق مع أصحابه ودخلوا على سعد بن أبي وقاص ، وهو في حصن فذك . وقال له عاصم : أبشر فقد والله أعطانا الله أرضهم .

وقيل أن يزدجر طير بعد ذلك وغضب وقال : إن الذين
خرجوا من المدائن بترابها إنما خرجوا معهم بأرض فارس .
وقد كان .

نحن العرب الذين عرفت صفوفنا أمثال البراء بن مالك .
عندما تحصن مسيلة بالحديقة في « غزوة اليمامة » ، وفكر العرب
في محاصرتها بحثا عن ثغرة تنجح لهم فتح بابها الضخم . وظل البراء
زائغ البصر حتى وجد مكانا فطلب إلى اخوانه أن يحملوه ويلقوه
عليهم في الحديقة . فقال الناس لا تفعل يابرا . . ولكنه أصر على
قوله . فرفعه المحاربون إلى أعلى الجدار . ولم يطل ترده إذ ألقى
بنفسه على بني حنيفة أمام باب الحديقة . وظل يضرب بسيفه يمنة
ويسرة حتى فتح بابا للمحاربين فدخلوا منه زمرا يقتلون في عنف
ويسحقون خصومهم سحقا . .

ومنا خالد بن الوليد الذي أريد له أن يذهب إلى الشام
فاختار الطريق الأشق والتمس رافع بن عميرة الطائي دليلا له .
فلما جاءه قال له : إنك يا خالد إن تطيق ذلك بالخييل والانقال :
« والله أن الراكب المنفرد يخشى فيها على نفسه . أنها خمس ليال
لا يصاب فيها ماء . .

فقال له خالد : لا بد من ذلك فربأمرك قال : استكثروا
إذن من الماء فن استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على ماء فليفعل
فإنها المهالك إلا مادفع الله .

وطلب إلى خالد أن يجيشوه بأبل سمان . فلما جاءوه بها عمد
إليها فظمأما حتى إذا بلغ بها العطش مبلغه أورد لها الماء عللا
بعد نهل فلما امتلأت صر أذنها وشده مشافرها لئلا تجتر . وانطلق
خالد بالجيش يتهـمداه رافع . وأمضوا خمسة أيام يسرون في
وحشة الصحراء . وينزلون كل يوم فيأكل الرجال ويشربون مما
معهم من الماء . ثم يشقون بطون عدد من هذه الأبل إلى أنخذرها
خزانات ويخرجون الماء منها ويسقونه الخيل حتى بلغوا آمين .

ومنا د سعد بن أبي وقاص ، الذي وصل مع رجاله إلى شاطئ
دجلة فوقف على شاطئه ينظر وينظرون إلى تدافع مياهه يفكرون
في وسيلة لعبوره وهم يرون على مد البصر المدائن ، في عظمتها
وقصر كسرى في بهائه . وانتهى به الرأي إلى أن يعبر مع رجاله
على خيولهم . وتقدم عاصم بن عمر ومعه ستائة من أهل النجدة
فساروا حتى بلغوا شاطئ دجلة . يريدون أن يعبروا أولا

ليحموا الفراض من الجانب الآخر . فلما وجد بعض رجاله
يترددون . تلا قوله تعالى : وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن
الله كتاباً مؤجلاً ، ثم رفع رأسه فاقتحم النهر واقتحمه زملاؤه .
فلما رأى القمقام بن عمرو السكتية الأولى تتقدم في سبيلها .
ونظر فإذا بفرس على الجانب الآخر . من النهر يتأهبون لردها ،
أمر سائر أصحابه الستائة فدفعوا خيولهم إلى النهر فدخلوه كما دخله
عاصم وأصحابه . وتولى الفرس العجب لهذا الصنيع . فلما رأوا
عاصم وأصحابه ، يتوسطون النهر أرسلوا فرسانهم لينعومهم من
الخروج . وليقاتلهم في الماء ، ورأى عاصم هذا فقال لأصحابه :
الرياح الرياح . اشرعوها وتوخوا العيون . وارتدت خيول
الفرس حين أصابت الرياح عيونها . وخرج عاصم ومعه كتيبة
الاهوال سالمين . . ورأى سعد قوة أصحابه فاندفعوا جميعاً ألوفاً
مؤلفة . وساروا في النهر كأنما يسرون على وجه الأرض حتى
ملأوا ما بين الجانبين ، فلا يرى وجه الماء من الفرسان ، وجعل
الناس يتحدثون على وجه الماء كما كانوا يتحدثون على وجه
الأرض . . .

أما عاصم فقد أمر أصحاب الزوارق والسفن من الفرس
فدفعوها ، فجعلت تنقل من العرب من لم يعبر على جواده . ولم

يفقد العرب رجلاً واحداً . وخرجت خيول العرب من الماء تنفض أعرافها صاهلة . .

ودخل العرب القصر الأبيض قصر كسرى ، وأقاموا به . واتخذوا الأيوان مكاناً لمقامهم . ووجد سعد في خزائن كسرى ثلاثة آلاف ألف الف الف دينار . ثلاث مرات أى تسعة ملايين دينار . ووجد بالقصر من التحف والامتنع ما لا تعرف قيمته .

ووجد تاج كسرى مرصعاً بالدر والجوهر . وجيء له بسفطين في أحدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثفره ولباته الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة ولجامه كذلك . وفرس من فضة مكلل بالجواهر ، ونافاة من فضة عليها غطاء من ذهب .

ومنا ، أبو محجن الثقفي ، الذي قيده سعد في معركة القادسية ، وتركه في خيمته . وكان من فرسان العرب . فلما اشتد القتال وتردد تكبير الناس في أذنيه صعد يجر أغلاله يطلب إلى سعد أن يدفع به في المعركة ، ولكن سعداً رده ، فذهب إلى زوجة سعد دسلى ، يطلب إليها أن تحل قيده وأن تميره ، بالبقاء ، فرس سعد . واقسم إن عاش بعد المعركة أن يرجع فيضع رجله في القيد .

فلما نزل إلى المعركة كانت ميمنة العرب قد انحرفت فإذا بسعد
يحد فارساً عملاقاً يندفع فيضرب في صرامة وعزيمة فيدهش
ويقول لنفسه : أن الضرب ضرب أبو محجن والفرس هي البلقاء
وكيف يتأتى هذا وأبو محجن والفرس مقيدان . فلما تم النصر
وكان لأبي محجن فيه أكبر الفضل عاد كما أقسم فقيده نفسه ..
عندئذ عرف سعد أن زوجه قد أطلقته فدعا به وأراد أن يكرمه
فقال : لله على ألا أقيدك في شرب الخمر أبداً . فقال أبو محجن
ولله على ألا أشربها أبداً فقد كنت أشربها حتى لا يقول العرب
لبنى تركها خوفاً من إقامة الحد .

ومنا « عمر بن الخطاب » كان يصاحب المحاربين بروحه .
ويعيش معهم وهو في المدينة يتسقط أنباءهم . ولا يذوق النوم
إلا لما . ساهراً ليله يسأل ويدعو ، فلما كانت موقعة « نهاوند »
التي أطلق عليها « فتح الفتوح » خرج مبكراً يلتمس الانباء ، وقد
توقع أن يصل من يحمل له الخبر ، وقد صدق حدسه . فقد لقي
طريف بن سهم يحث خطا دابته إلى المدينة ، فاستوقفه وسأله .
فذكر له ما انعم الله به على العرب فعاد معه حيث أعلن النبا
ولسكنه لم يلبث أن خرج مرة أخرى يريد أن يقف على تفاصيل

جديدة ، ومضى هو وجماعة من أصحابه يمعن في الطريق الذى
يؤدى إلى فارس . فاذا بهم يلقون السائب بن الأقرع فسأله عمر
عما وراه ؟ فقال البشرى والفتح ، قال عمر : ماذا فعل النعمان ؟
قال : ذات فرسه فى دماء القوم فاستشهد . قال عمر ، إنا لله ولم
يتمالك أن بكى . ثم أخذ يسأل عن غيره فذكر له أعيان القوم
وأشرافهم ثم قال : وآخرون من أمناء الناس لا يعرفهم أمير
المؤمنين ، قال عمر : ماضهم ألا يعرفهم عمر . لكن الله يعرفهم
وقد أكرمهم بالشهادة .

ومنا أهل المغرب الذين قاموا بأعمال الفتح الحافظ ومطاردة
سفن الاعداء وردوا على قرصنة إيطاليا وفرنسا وأسبانيا بأن
أنزلوا بالموانى الأوربية الأذى جزاءاً وفاقاً ..

في ميدان الفكر العلم

نحن العرب ، الذين كان لنا في ميدان الفكر والعلم والبحث دور خطير . هذا الدور الذي صورته جوستاف لوبون بقوله :
« كلما أمعنا في دراسة حضارة العرب وكتبهم العلمية واختراعاتهم ظهرت لنا حقائق جديدة . وآفاق واسعة . وسرعان ما رأينا أن العرب هم أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين . وأن جامعات الغرب لم تعرف لها مدة خمسة قرون مورداً علمياً سوى مؤلفاتهم . وأنهم هم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلاً وأخلاقاً . وأن التاريخ لم يعرف أمة أنتجت ما أنتجوه في وقت قصير ؛ وأنه لم يفقههم قوم في الإبداع الفنى . وتأثير العرب عظيم في الغرب - وهو في الشرق أشد قوة - ولم يتفق لأمة ما اتفق للمغرب من النفوذ . والامم التي كانت لها السيادة كالأشوريين والفرس والمصريين والاعريق والرومان قد توارت ولم تترك لنا غير أطلال دارسة . وعادات أديانها ولغاتها وفنونها ذكريات .
والعرب وإن تواروا عن مسرح السيادة فترة ، إلا أن

عناصر حضارتهم ظالت قوية مؤثرة كما بقيت روحيتهم ولغتهم وفنونهم حية . بقاء أكثر من مليون شخص مقيمين فيما بين المحيط الاطلسي وقلب الهند .

نحن العرب ، الذين أكد المؤرخون أنه لو لم يظهر على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون .

منا دواصل بن عطاء ، رأس المعتزلة . وأبو ذر الغفاري رأس الاشتراكيين ومعاذ بن جبل أستاذ مكة في الفقه . وزيد بن ثابت أمير المدينة في العلم ، وعبد الله بن مسعود رئيس الكوفة في الفكر . وه ابن عربي ، فيلسوف وحدة الوجود . والثوري وأبو حنيفة والحسن البصري ومالك والشافعي وابن حنبل .

منا الاوزاعي عالم أهل الشام الذي أفتى في سبعين ألف مسألة . منا دابن جرير الطبري ، الذي وضع أول تاريخ كامل في اللغة العربية عاش بين عامي (٧٣٨-٩٢٣) مفكراً حراً نزيهاً جباراً الذهن ، يعد كتابه من أهم مصادر التاريخ العربي .

منا الجاحظ ، النابغة العالم الذي كان يؤجر المكتبات فيعيش فيها الايام والاسباع حتى يقرأها ، ويستوعبها . والذي

مات بمقروط المكتب عليه . وكان من عادته أن يصفها كالحائط
محيطه به وهو جالس في داخلها .

منا ، البيروني ، أول من عرف الهند بأنها شبه جزيرة . وأول
من قال إن قم العالم هي التبت في د آسيا ، والبيرنيه والالاب في
أوروبا . والذي كشف كتابه تاريخ الأمم عن دراسات في الفلك
والسلات عدت كنزا ضخما في الفلسفة والعلوم .

منا ، أبو الفداء ، الذي قال إن الأرض كروية تطفو في مركز
الوجود وقال : لو أن رجلين ابتدأ السير واتجه أحدهما شرقاً
والآخر غرباً فأنهما يتقابلان ،

ولكن الرجل الذي يتجه شرقاً يصل إلى مكان اللقاء قبل
الآخر بـيوم .

منا ، السكندی ، أعظم أطباء الإسلام . والذي كتب ما لا يقل
عن ٢٠ مؤلفاً في الطب . وقد وصل إلى حد البراعة في علم
الجرعات على أسس حسابية . منا ، أبو بكر محمد بن زكريا الرازي ،
الذي كانت شهرته تضارع شهرة د رازس ، وقد زادت مؤلفاته
في الطب على المائتين . أهمها د الهادي ، الذي أحاط بجميع ما وصل
إليه اليونان والسريريان والعرب الأوائل ، وقد اشتهر بأنه أول

من كتب بشوسع في أمراض الاطفال . وشخص أمراض المنانة
وكان من أعظم الاخصائيين في علم الولادة . وفي علاج أمراض
المجاري البولية بالحقن . حتى قال الدكتور روبنسون . إن الرازي
كان يعالج الامراض التناسلية كما نعالجها في أيامنا هذه . وإليه
ينسب اختراع الفتيمة في الجراحة .

من أبو القاسم الزهراوى : أعظم جراح عرف في العصور
الوسطى . وإليه يرجع الفضل في معرفة ما يقرب من مائة آلة
ومبضع وقد ظلت طريقته هي المتبعة في أوربا الوسطى إلى مدى
خمسمائة عام . وكان عالما في طب الاسنان وهو أول من كتب
لإحصائية صحيحة لأمراض الزيف الدموى .

ومننا د علي بن عيسى ، صاحب أكبر مؤلف عرف في ذلك
الوقت . وهو تذكر الجاهلية في طب العيون تناول فيها طبيعة
العين وكيفية تشريحها ، كما تناول بالشرح ٣٠ مرضا من أمراض
العيون ووصف ١٣٠ دواء . كان يستعملها في علاج هذه الامراض
ومننا د ابن سينا ، الذي يعد بمفرده دائرة معارف والذي
كتب في الفلسفة والطبيعيات وعلم الفلك والطب ما لا يقل عن
عن مائة وستة وخمسين مؤلفا .

وقال « جورج سارتون » ، عنه إن مؤلفاته ظلت الأصل والمرجع للآداب والفنون إلى أجيال جديدة بعد موته . وكتابه « القانون في الطب » هو المرجع الوحيد لجامعات أوروبا خلال القرن السابع عشر . وقد تضمن ما يزيد على مليون كلمة .

ومنا « المسعودي » ، الذي أمضى ربع قرن في الطواف بالمملكة الإسلامية الواسعة . ومنا « ابن بطوطة » وابن حوقل وأبا الحسن والناصر سليمان وكلهم من الرجال الذين كتبوا مجلدات ضخمة عن مشاهداتهم .

ومنا « الخوارزمي » ، الذي وضع جداوله الفلكية المعروفة استنادا إلى كتاب القزاري الذي ترجم رسالة الفلك الهندية لجمع ما بلغه اليونان والهنود في هذا العلم وزاد عليه أهورا جديدة .

ومنا « سنان بن ثابت بن قره » ، الطبيب الذي كان يمتحن الأطباء . ويعطى الاجازات الطبية لمن توفرت فيهم الأهلية . وقد اجتاز الامتحان على يديه ما نيف على ستمائة وستين .

منا « علي بن حزم » ، الذي نسب إليه ابن خلدون والقنطري أربعمائه مجلد في التاريخ والدين والحديث والمنطق .

وقد تلاقى مساجدنا وكنائسنا في رسالة الروح التي عرف بها العرب قادة للعالم ، كما تلاقى أرواحنا في ساحة الاستشهاد ، فقد

كنا صفا واحداً مسلمين ومسيحيين في كل معركة قتال قاومناها
العدو المغير ، وكانت لنا بطولات على حد سواء . وكان محمد ،
مجدداً للعرب جميعاً كما كان عيسى ، وكان التراث العربي مشتركاً
موحداً ساهم فيه المسيحيون في بيت الحكمة في بغداد ، ومدرسه
الرها ، وبرع منهم في ترجمة الكتب حنين بن اسحق الذي ترجم
للنصور بعض كتب ابقراط وجالينوس في الطب وأقليدس
في الهندسة .

وكانت مساجدنا مراكز هامة للحركة العلمية . ففي مساجد
البصرة ودمشق وبغداد والقاهرة كانت تقام حلقات الادب
والجدل والشعر .

وكان مسجد بن طولون في القاهرة ، وبيت المقدس في القدس
والمسجد الاموي في دمشق ، والزيتونة في تونس مراكز
ثقافية هامة .

وفي خلال النهضة العربية وأبانها زادت حركة النقل والترجمة
من اليونانية والفارسية . وكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه
أهل الكلام . وشجع المأمون الترجمة واستقدم من القسطنطينية
المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والطب والموسيقى . وفي

اصهبان والرى أقام الصاحب بن عباد والفتح بن العميد مرا كز
ثقافية ذات أهمية كبرى . وكانت وفود الادباء تقصد إلى بلاد
الحمدانيين في الموصل ثم في حلب حاضرة سيف الدولة ، وتعقد
حلبات الشعر والفكر .

وفي مصر العربية كان الازهر ولا يزال . وزخرت القاهرة
بالعلماء والمتحدثين والمتصوفة والادباء والشعراء والمؤرخين :
أمثال القاضي بك بن قتيبة ، وأبا القيص ذا النون المصري ، والربيع
ابن سليمان . وابن عبد الحكم صاحب فتوح مصر والمغرب
والإندلس .

وقيل إن في خزانة الكتب الفاطمية أربعين قسما كل قسم
يشتمل على ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة . وبلغ عدد
الكتب بالخزانة نحواً من مليون وستمائة ألف تناول الفقه والنحو
واللغة والتاريخ وسير الملوك . وعلم النجوم والالهييات والكيمياء
ودخل ورق الكتابة إلى بلادنا في أواسط القرن الثامن من
الصين عن طريق سمرقند . وقبل ختام ذلك القرن شاهدت بغداد
أول معمل للورق ثم تلتها تدريجياً معامل أخرى .

وظهر أول معمل للورق في مصر عام ٩٠٠ م ، وفي مراكش

عام ١١٠٠ م وكان ذلك قبل أن يصل الورق إلى أوروبا بثلاثة قرون ، فلما وصل إليها كانت أسبانيا العربية هي التي حملته مع علومها وفنونها .

وكانت سوق د عكاز ، تقام في شهر ذي القعدة من كل عام على مسافة قريبة من مكة فيجتمع فيها الجميع ، وهم في حى الأشهر الحرم ، فيتصارلون ويتساجلون ويتعارضون بالرأى والشعر .

وكان الشعراء أمثال المابغة والاعشى . والخطباء أمثال عمرو بن كلثوم وقيس بن زهير . والكهان أمثال قيس بن ساعدة وأمية بن الصلت ينتظمون في حلقات مشهورة فيها المدح والفخر والوعظ . وينصرف الرواة إلى بلادهم وقد سمعوا الأخبار والقصص وعرفوا الجديد من أنباء الفكر والأدب .

أما المكتائب . فقد روى أن مكتبة القاهرة كانت تشتمل في القرن الحادى عشر الميلادى على كرتين فلسكيتين . وكان في كل مسجد مكتبة . لانه كان من عادة العلماء أن يقفوا كتبهم على المساجد ويقال أن خزانة الكتب في (مرن) كانت تحوى كتب يزدجرد لانه حملها إليها وتركها . وكان الملوك يفاخرون بجمع الكتب حتى لكان لكل حاكم عربى ولع شديد بالكتب وكان الحكيم

صاحب الاندلس يبعث رجالا إلى جميع بلاد المشرق ليشتروا
الكتب عند أول ظهورها . وكان فهرست مكتبته يتألف من أربعة
وأربعين كراسة .

أما في مصر فكانت للخليفة العزيز خزانة كتب كبيرة .
وقد ذكر ان عنده كتاب « العين » للخليل بن أحمد فأمر خزان دفاتره ،
فأخرجوا من خزائنه نيفا وثلاثين نسخة بخط الخليل بن أحمد
وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى فاشتراها بمائة دينار .

وقال « المقرئى » أن خزائنه كان بها ألف وستمائة كتاب .
ولما يمض على تأسيس بغداد ثلاثة أرباع قرن حتى أصبح في
حوزة العرب أهم كتب أرسطو الفلسفية ونخبة من كتب الشروح
لأهل الفلسفة الافلاطونية الجديدة ، ومعظم كتب جالينوس
العلمية وطائفة من الكتب العلمية فارسية وهندية .

وكانت « قرطبة » أكثر المدن الاسبانية حضارة . وكانت
مثار إعجاب العالم ، وكان الرحالة الاوربيون يعجبون بهذه المدينة
التي تحوى سبعين داراً للكتب وتسعمائة حمام للجمهور . وكان
يقصدها امراء ليون ونافار وبرشلونة حين يحتاجون إلى جراح
أو مهندس أو مطرب كبير .

وتأتى طليطلة بعد قرطبة في مراكز الثقافة .

وفي سامان كانت مكتبة نوح بن نصر عديمة المثل . فيها كل فن من الكتب المشهورة بأيدي الناس وغيرها بما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلا عن معرفته .

ومن أسبانيا العربية انتقلت الحضارة إلى أوربا . ومن صقلية العربية انتقلت الحضارة إلى إيطاليا حيث انبثقت فيما بعد النهضة الإيطالية .

وحاش الشريف الإدريسي في صقلية وهو أعظم الجغرافيين القدماء على الإطلاق في بلاط روجر . والى كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) .

وكان فردريك الثاني حاكم صقلية يجتمع بالعلماء العرب من دمشق وبغداد وأنشأ أول وأكبر جامعة في أوربا هي جامعة نابولي (١٢٢٤ م) وزودها بمكتبة عربية درس فيها أرسطو وبشروح الفيلسوف العربي ابن رشد .

وترجم روبرت تشرت كتاب الخوارزمي في الجبر وهو أول من ترجم القرآن إلى اللاتينية . كما ترجم مينخايل سكوت التراجم اليوناني عن العربية .

وترجم حنين بن اسحق (٨٠٩ - ٨٧٣) كتب جالينوس
وابقراط . وكتاب السياسة لافلاطون ، والمقولات والطبيعات
لارسطو . وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من
الكتب .

ولكن ماذا كان مصير هذه الثروة الضخمة من الكتب
العربية ؟ .

لما أغار هولاكو التتري على بغداد عام (٦٥٦) أمر بالقاء
كتب العلم التي كانت في خزائنها في نهر دجلة . كما أمر أن تبني
بجزء من الكتب اسطبلات للخيول ومزاود بالورق بدلا من
الآجر والطين .

ولما فتح الفرنج طرابلس الشام في الحروب الصليبية احرقوا
دار كتبها بأمر قائدهم الكونت برتران دي ما تيجيل .

واحرق الفرنسيون كل الكتب المطبوعة والمخطوطة التي
وجدوها بمكتبات قسطنطينية عندما فتحوا الجزائر .

أما الكردينال كنيسي مطران طليطلة فقد أمر بجمع جميع
الكتب والاثار العربية في غرناطة وتنظيمها اكداسا في ساحات
المدينة واحتفل باحراقها كعمل من أعمال التعصب .

وبقدر بعض المؤرخين هذه المخطوطات بأكثر من مليون
مجلد وشئت النار في الاسكوريال في أواسط القرن السابع عشر
ففرقت عدة آلاف التهمتها النيران ولم يبق من هذا الكنز
الفريد سوى ألفي مجلد ..

وحرق ٦٠٠ ألف مجلد أيام غارات البربر .

وقد بلغ من ثروتنا هذه ثلاثين ألف كتاب ، في حين أن
بعض المؤلفين بلغت تصانيفهم بضع مئات . فقد كتب الكندي
واحداً وثلاثين ومائتين . والرازي مائتين . وابن حزم
اربعمائة . والقاضي الفاضل مائة . وعبد الله بن حبيب عالم
الاندلس الفا .

وذكر جييون في كتابه عن الدولة الرومانية انه كان
في طرابلس على عهد الفاطميين مكتبة تحوى ثلاثة ملايين مجلد
احرقها الفرنجة عام ٥٠٢ هـ

ووجد في مكتبة الاسكوريال قواميس عربية يونانية وأخرى
عربية لاتينية .

ونحن العرب ، الذين حولنا أسبانيا ماديا وثقافيا في بضعة

فرون لمجملتها على رأس جميع الممالك الأوروبية. ولم يقتصر تحويل العرب لأسبانيا على ذلك بشهادة المؤرخين الأوروبيين انفسهم . كان لنا الأثر الواضح في تعليم الناس « التسامح » الذى هو أئمن ما تصبو إليه الانسانية :

وعلى حد قول « سيديو » عن جامعة بغداد « ان أهم ما اتصفت به منذ البداية هو روحها العالية الصحيحة التى كانت سائدة فى استخراج المجهول من المعلوم . والعامل من المملولات ومن عدم التسليم بما لا يقوم على التجربة والترصد ، وقد كنا فى القرن التاسع الميلادى حائزين لهذا المنهج المجدى الذى اقتبسه علماء أوروبا بعد زمن طويل فكان عاملا فى اكتشافاتهم المعروفة .

وقد سجل المؤرخون الأوروبيون أن العرب كانوا أساتذة الأمم الأوروبية عدة قرون وانهم لم يطلعوا على علوم قدماء اليونان والرومان الا بفضل العرب وان جامعاتهم لم تمتنع عن تدريس ما نقل إلى لغاتهم من مؤلفاتنا إلا منذ سنوات .

واجهم المؤرخون على أن حضارتنا دامت بعد زوال سلطانتنا السياسى . وان ميلنا الشديد إلى الفنون والآداب والعلوم ، قد

جعلنا نضرب بهم وافر في المباحث الرياضية والفلكية والطبيعية
والكيمياوية والطبية .

نحن العرب ، الذين أقننا في القرن التاسع الميلادي أول
إرصاد منظم استخدمت فيه آلات دقيقة الصنع ، وكان ذلك
في (جندسابرر) وفي (دمشق) و (بغداد) وقد جمزت تلك
المراسد بالآلات فيها مقياس الارتفاع والاسطرلاب والساعة
الشمسية .

كما أننا عرفنا علم الكيمياء وأدخلنا التجربة الموضوعية .
وبعد جابر بن حيان الذي ظهر في الكوفة عام ١٧٦ أبو الكيمياء
العربية وقد نقل جابر عدداً غير قليل من كتبه إلى اللغة
اللاتينية . كما نقل كتابه « الاستنهام » إلى اللغة الفرنسية عام
١٦٧٢ مما يدل على قوة نفوذه العلمي في أوروبا أمداً طويلاً

وتؤلف كتب « جابر بن حيان » موسوعة علمية تحوى
خلاصة ما وصل إليه علم الكيمياء في عصره . وقد عرف جابر
خواص بعض الأرواح .

واشتملت كتبه على بيان كثير من المركبات الكيمياوية التي

كانت مجهولة قبلة كالحامض النترى وماء الذهب والبوتاس
وروح النشادر

وهل نستطيع أن ننسى د. أبو القاسم القرطبي ، المتوفى سنة
١١٠٧ وهو أشهر جراحى العرب ، والذي اخترع كثيرا من آلات
الجراحة ورسمها فى كثير من كتبه . وقد وصف عمالية سحق الحصاة
فى المثانة واخراجها الى عدت ظلما - كما يقول جوستاف لوبون -
من اختراعات العصر الحاضر . والذي قال عنه د. هالر ، العالم
الطبيعى الكبير ان كتبه كانت المصدر العام الذى استقى منه جميع من
ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر .

د. نحن العرب ، الذين أدخلنا العلوم الى اوربا عن طريق
اسبانيا وصقلية وايطاليا فى سنة ١١٣٠ أنشئ فى طليطلة مكتب
للازجة . فصار هذا المكتب ينقل الى اللغة اللاتينية اهم كتب
العرب . وترجمت مؤلفات علمائنا كالرازي وأبى القاسم وابن سينا
وابن رشد . كما نقلت كتب علماء اليونان من مترجماتها العربية
ككتب جالينوس وابقراط وافلاطون وارسطو واقليدس
وارخميدس وبطليموس .

د. نحن العرب ، الذين كان لنا على حد قول لوبون - استعداداً

ذهنيا خاصا ممكننا من دراسة أمور العالم الذى كان جديدا
فى أعيننا بمثل ذلك الاستعداد الذى فتحناه به . ولادعه يمل
عبارته: . . . ولم يتقيد العرب فى دراسة تلك الحضارة التى
واجهتهم فجأة بمثل التقاليد التى أثقلت كاهل اليزن نطيين منذ زمن
طويل ، وقد كانت الحرية من أسباب تقدمهم السريع . ولم يلبث
ان تجلى استقلال العرب الفكرى وخيالهم وقوة ابداعهم
فيما ابتكروه . وقد رأينا انه لم يمض سوى وقت قصير حتى طبعوا
على فن العمارة وسائر الفنون من مباحثهم العلمية وطابعهم الخاص
الذى يبدو لأول وهله من آثارهم . . . فلقد ابدع العرب من
فورهم ، بعد ان استعانوا بحضارة اليونان وحضارة الرومان
وحضارة الفرس حضارة افضل من تلك الحضارات التى جاءت
قبلها . .

في ميدان الحضارة

ونحن العرب، كانت قصورنا حديث الدنيا : الزهراء والحراء
وسر من رأى ومسجد قرطبة وقصور الناصر في الأندلس والعزير
بألقه في القاهرة . وبني بوية في الرصافة . وبني حمدان في حلب .
وبني عباد في أشبيلية . ومعاوية في دمشق . والمأمون في بغداد .

فالزهراء بناها الناصر في أربعين عاما . يتوسطها قصر الزهراء
الذى يزينه ع آلاف عمود من المرمر ، كانت من روميه وأفريقيا
وتونس . وبعضها أهداه صاحب القسطنطينية وفيها الرخام
الابيض والاخضر الوردى والمجزع . وكانت رداه مباحة يقطع
من الرخام المنقوش بمهارة على ألف شكل . وكانت حواجز هذه
الردهة مغطاة بالمرمر ومزخرفة بالافاريز ذات الألوان الباهرة .
وكانت جسور هذه السقف وترايبعها الارزية دقيقة الصنع .
وكان من بعض رداه عيون تصب مياهها الصافية في صهاريج
رخامية ذات أشكال متنوعة انيقة . . وكان في ردهه الخليفة عين

م مصنوعة من الذهب ومزينة بأوزة عجيبة الشكل من الذهب عملت
في القسطنطينية . وكان يعلو هذه العين الدرة اليتيمة التي اتحف
الناصر بها قيصر الروم .

وبنى في الزهراء البحيرات تسبح فيها الاسماك بألوانها
وأواعها وأحواض بالرخام المنقوش في أشكال شتى بين مذهب
ومذهب وبني في وسطها حوضاً منقوشاً بنماثيل آدمية جرى به من
القسطنطينية وجعل عليه اثني عشر تمثالاً من الذهب الأحمر
مرصعة بالدر النفيس الغالي بصورة أسد بجانبه غزال وتمساح
بجانبه ثعبان ودمقاب وفيل ، وفي الجانب الآخر حمامة وشاهين
وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر وكلها من ذهب مرصع
بالجوهر يجرى الماء من أفواهها . وقد أنفق في بنائها ٢٠ مليوناً
من الدينارات . وعمل فيها عشرة آلاف رجل و ١٥٠٠ دابة .
وضمنت الزهراء قصور السكامل والمجدد والروضة والمعشوق
والمبارك والسرور والبديع .

ولإذا ذكرت الزهراء ذكر جامع قرطبة وأبرابه التسعة
المصفحة بالنحاس الأصفر الاباب المقصورة فانه من الذهب .
وكذلك جدار المهراب وما يليه . وقد أجرى فيه الذهب . هل

الفسيفساء . وفي بيت المنبر حلية الذهب مسككة بالدر والياقوت
فوق أغشية الديباج ، والمصحف موضوع على كرسي من العود
المرطب بمسامير الذهب .

ومن ذا الذي يذنب قصر الحمراء الذي أقيم على منحدر جبل
شعير الذي يعد من أجمل أمكنة العالم والذي يشرف على مدينة
غرناطة والحقول الواسعة الخصيبة . وإذا ما نظر المرء إلى الحمراء
من غرناطة رآها أبراجا مربعة ذات ألوان قرمزية يناطح أعلاها
السحاب . ويحيط بأسفلها النبات الأخضر الكثيف . وإذا مر
المرء تحت الأشجار التي تحف به سمع تغريد الطيور التي عليها .
وخرير الماء الذي يجري في السواقي والقنوات القريبة منها . ثم
دخل ذلك القصر الشهير رأى ما تغنى به الشعراء ولا سيما صاحب
المثريات « فمكتور هيجو » .

... أيتها الحمراء . أيتها الحمراء . أيتها القصر الذي زينتك
الملائكة كما شاء الخيال . وجعلتك آية الانسجام . أيتها القلعة ذات
الشرف المزخرفة بنقوش كالزهور والأغصان المائلة إلى الانهدام !
حينما تنعكس أشعة القمر الفضية على جدرانك من خلال قناطر
العربية يسمع لك في الليل صوت يسحر الألباب .

وقد ذاع صيت قاعة الاسود. وغرفة الاختين . وحجرة أبناء
سراج . وردة العدل .

وفي قاعة الاسود ترى الاروقة التي تزينها الاقواس المنوعة
المزخرفة بالنقوش المزهرة . والزخارف المتدلية والتخاريم
التي كانت ذهبية ملونة . وتقع عين الرائي على غابة من الاعمدة
الهيكلية التي وضع بعضها مفرداً ، وبعضها مزدوجاً . وبعضها
مجتمعة على شكل بدیع والتي تبصر من خلال النماج مياه فسقية
الاسود المتدفقة .

ومن أجل ما يذكر هنا صورة الاحتفال الذي أقامه الخليفة
المقتدر في قصره ، لاستقبال رسل الامبراطور قسطنطين . فقد
مشى في موكب الاستقبال يومئذ مائة وستون ألف فارس وراجل
وسبعة آلاف خصى منهم البيض والسود . وسبعائة حاجب ونحو
مائة أسد . وكان ما علق من الستور في قصر الخليفة ٣٨ ألف ستر
منها اثنا عشر ألفاً وخمسون من الستور المذهبة ، وبلغ ما حلوه
من البسط اثنتين وعشرين ألف قطعة .

ولما نظروا إلى دار الحاجب ودار الوزير حسبوها بحاس

الخليفة فقيل لهم أن هذه دار الوزير وتلك دار الحاجب . وكانت
دهشتهم على أشدها عندما دخلوا دار الشجرة وفيها شجرة من
الذهب والفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، وعلى كل غصن عصافير
وطيور من نوع مذهبة ومفضضة تتحرك كما يحرك الريح ورق
الشجر . فتصفر الطيور وتهدر . ثم أخرجوا إلى بستان فيه نخل
قد لبست جميعها ساجاً منقوشاً وهي مثقلة بفرائب التمر .

وكان اللامين عدة حراقات خاصة في دجلة على صورة الاسد
والفيل والعقاب وقد اتفق على عمل كل واحدة منها ثلاثة ملايين
درهم . وقد امتد مرسى بغداد أميالاً وحوى مئات السفن . ومن
بينها السفن الحربية ومراكب اللهور والسفن الصيدية والاطواف .
وهي قرب جلدية تملأ بالهواء ويشد بعضها إلى بعض كهيئة السطاح .
ويبدو الفن العربي في أروع صورته من المسجد الاموي في
دمشق . وفيه الصخرة في بيت المقدس . والجامع العظيم في سامرا
الذي بلغت نفقاته سبعمائة ألف دينار .

وكان قصر عبد الرحمن الناصر في قرطبه يضم بين جدرانه
أربعمائة غرفة ومقصورة جىء برخامها من يورمنديا وقرطاجنة .
أما الاعمدة والاحواض المزدانة بالتماثيل المذهبة فقد استجلب

بعضها من القسطنطينية والبعض الآخر جاء به هدية من امبراطورها .
وكانت شوارع قرطبه منارة بالهنداديل في حين أن لندن لم
يكن بها قنديل واحد عمومي إلى ما بعد سبعمائة سنة . وكان أمراء
ليون أو نافارا أو برشلوة إذا احتاجوا جراحاً أو مهندماً
لوا وجوهم صوب قرطبه .

وقيل أن الطريقة التي شيد بها المهندسون قصر قرطبه عجيبة .
وأن الاعمدة التي تستند عليها والتي أحضرت إلى قرطبه من جميع
أنحاء العالم قد وضعت بطريقة هندسية عجيبة . حتى أن كل من
وقف في صحن الجامع في أى اتجاه أمكه أن يرى المحراب .

ووجد في دار الخليفة المقتدر شجرة وسط حوض ماء لها
ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة تعوم على كل جانب من هذا
الحوض تماثيل خمسة عشر فارساً يلبسون الحرير ، ويتقلدون
وماحاً تتحرك على الاستمرار وكأنهم في وطيس معركة حربية .

أما دسر من رأى ، فقد بناها المعتصم (عام ٢٢١ هـ) أى بعد
تشديد بغداد بنحو ثلاثة أرباع القرن وقالوا أنه بناها بعد أن أكثر
من اتخاذ الجند الترك في جيشه . والف منهم فرقة خاصة طنى

نفوذها على سائر فرق الجيوش من الفرس والعرب . وضافت
بغداد بهم ، فكان أن عزم على الخروج بجنده من عاصمة الرشيد
متخذاً لدولته عاصمة جديدة .

ووقع اختياره على موضع في مدينة سامراء الحالية على الضفة
اليسرى لهر دجلة ، وعلى مسافة مائة وثلاثين كيلو متراً شمالى
بغداد . وقد فضلت لموقعا الحصين حيث المياه تحيط بها
في جميع أطرافها فتواف خطاً دفاعياً للمدينة الجديدة .

وقد اتجه المعتصم في تشييدها إلى الإبداع في البناء واستخدم
سائر الفنون الصناعية والزخرفية فاستقدم أعظم الصناع وأصحاب
المهن من جميع أنحاء بلاد العرب لينافس بها بغداد .

وأنشأ من القصور والبيوت والمساجد والبساتين ما يحل من
الوصف على طول امتداد تسعة عشر كيلو متراً .

وقد أنفق المتوكل على تعمير سامراء ، وبناء القصر نحو
اثني عشر مليوناً من الدينارات . وكتب « ياقوت » : « لم بين أحد
من الخلفاء بسراً من رأى من الأبنية العظيمة ما بناه المتوكل ،
فهى في نظره أعظم بلاد الله .

وقال « القزوينى » : « لأنه لم يكن في الأرض أحسن ولا أجمل

ولا أوسع ملكاً منها . ومن قصور سامرا : قصر العـروسي
والمختار . والبرج . والغريب ، والصبيح ويستان والقلائد .

كما شيد المسجد الكبير ، وأعظم النفقة عليه ، وأمر برفع
منارته لتعلو أصوات المؤذنين فيها ، ولاتزال آثار مئذنته الملوية
باقية ، ويتألف إيوان القبلة في المسجد من خمسة وعشرين رواقاً
ويبلغ عدد أعمدة المسجد أربعمائة وثمانية وثمانين عموداً .

وأشداً المتوكل حديقة كبرى للحيوانات المتوحشة ، كانت
توسطها البركة للحيوانات الجعفرية التي وصفها البحترى في
قصيدته . وإلى جوار البركة حابيتين كبيرتين للسباق والفروسية
كما شيد جنوبي العاصمة قصر بالكوار الذي امتاز بعظمة مساحته
وكثرة الظواهر الفنية .

وعلى ذكر بركة الجعفرية نذكر بركة خمارويه التي وصفها
المقريزي . وهي عبارة عن فسقية مملوءة بالزئبق . خمسون ذراعاً
طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً . وقد جعل أركان البركة سككاً
من الفضة الخالصة . وجعل من السكك زناجير من حرير محكمة
المصنعة في حلق من الفضة . وعمل فرشاً من ادم يمشى بالريح حتى

يُنتفخ فيحكم حينئذ شدة ويبقى على تلك البركة وأحمد زناير الحرير
التي في حاققة الفضة بسكك الفضة ولا يزال هذا الفراش يترنح
بحركة الزئبق ما دام عليه . وكانت هذه البركة يرى لها في الليالي
المقمرة منظر بهيج إذا تآلف نور القمر بنور الزئبق وقد أخذ
الأوربيون عن العرب في القرن الحماذي عشر والثاني عشر من
الميلاد كثيراً من العناصر المعمارية والزخارف الفنية . وقد وجد
في كتدرائية لوى التي هي من أهم البنايات النصرانية باباً مستوراً
بالكتابات العربية . كما قامت حصون أربونة وفق الذوق العربي
ويبدو أثر الذوق العربي واضحاً في الكنائس الفرنسية

وقد أدخل الصليبيون الذين شاهدوا ما اشتمل عليه فن
العمارة العربي من الشبابيك وشرف المآذن والأفاريز ، أدخلوا
إلى فرنسا الأبراج والأطناف والجواسق .

وبنى الملك ريتشارد قلب الأسد قصره المشهور في مقاطعة
نورماندى في فرنسا على الطراز العربي .

ولم يكن هذا وحده الذي نقله الأوربيون . فقد حمل

الأوربيون الأرقام العربية معهم حيث حملت محل الأرقام
الأوربية المعقدة . كما أفادوا من علوم الحساب والهندسة والجبر
والفلك والجغرافيا . وفي اللغات الأوربية كلمات كثيرة ذات أصل
عربي . وظل الفرسان الأوربيون طويلا يلبسون دروع الزرد
وقمصان القطن ، وأخذوا لعبة الكرة والصولجان والمبارزة .

بطولة المرأة العربية

والمرأة عندنا صفحات من الابداع لا تنسى . .

هذه خولة بنت الازور التي قامت بعد أن أسر أخوها ضرار في موقعة (أجنادين) فتلصقت في زى فارس ، ومضت تحارب مع خالد بن الوليد الذي سار بانقاذه . قال خالد : أنه بينما هو في الطريق مر به فارس معتقل رمحه لا يرى منه إلا الحديق . وهو يقذف بنفسه لا يلوى على ما وراه فلما نظر إليه قال : ليت شعري من هذا الفارس . وايم الله أنه لفارس . ثم أتبعه خالد والناس من ورائه . حتى أدرك جند الروم فحمل عليهم حتى دمر كياناتهم وحطم مواكبهم . فلم يكن غير جوله جائل حتى خرج وسنانه ماطخ بالدم وقد قتل رجالا ثم عرض نفسه للموت ثانية . فاخترق صفوف القوم غير مكترث . وظنه الناس خالدا ؛ وقال الناس : من هذا الفارس الذي خرج كالشهاب على فرسه . وكلما تقدم منه أحد أهل رمحه في صدره . وهنا ناشده خالد أن يكشف اسمه فرفع لثامه . وقال : أنا خولة بنت الازور .

« وسكينه ، بذت الحسين التي كانت دارها بجمع الشعراء من كل صوب وحذب . وقد اجتمع لها جرير والفرزدق وجميل وكثير ونصيب فنقدت لكل شعره وأخذت عليه مأخذه ثم اثابت كلا بألف دينار فخرجوا بخمسة آلاف دينار .

« وعزة الجحينة ، من سرة بني جمح التي يجتمع إليها الشعراء والرواة في دارها فتسمع لهم وتوازن بينهم جميعاً .

ولما وفدت « عائشة ، بذت طلحة على هشام بن عبد الملك قال لها : ما أوفدك . قالت : حبست السماء المطر ومنع السلطان الحق ، قال : إني سأعرفه حقلك . ثم بعث إلى مشايخ بني أمية فقال : أن عائشة عندي فاسمروا لدى الليلة . فحضروا فما تذاكروا شيئاً من أخبار العرب وأشعارها وأيامها إلا افاضت فيه . وما طلع نجم ولا أغار الا سمته .

فقال لها هشام . أما الاول فلا أنكره . وأما النجوم فن ابن لك ؟ قالت أخذتها عن خالي عائشة .

ودولاده ، بذت المستكفي بالله التي كان قصرها بجمع الكتاب والشعراء والقضاة والعلماء والوزراء ، وهي الغائلة :
ودع الصبر محب ودعك ذائع من سره ما أستودعك

وقد أحبت ابن زيدون .

وهناك «مهجة» القرطبية . «ومريم» بنت يعقوب الأنصاري
وهناك الزاهدات من النساء المقطعات إلى العبادة . الممتنعات عن
طيبات الحياة . القائئات الباكيات . ومنهن : رابعة العدوية ،
وعبدہ «بفتح العين» المبصرية . ونفريہ بنت عثمان . ومعاذہ
بنت عبد الله . وكانت رابعة تصلّي اللیل كله فإذا طلع النجم هجعت
فی صلاتها هجمة خفيفة حتى يسفر الفجر .

وهناك «سلمى» بنت حفص زوج المثنى بن حارثة التي تزوجت
سعد بن أبي وقاص من بعده . ووقفت مقيمة إلى جانبه ترى
ما يرى . فلما رأتهم يشدون على العرب ويقتلون منهم صاحبت
«وامثلياه» ولا مثلى للخيل بعد اليوم .

عدالة الحاكم

ومنا ، الحاجب المنصور ، الذى قصده الجواهرى القادم من مدينة عدن بجواهر كثيرة يقول له . إن صرة الجواهر قد اختطفها عند الشاطئ . حدأة فبعث المنصور يسأل فى محيط التجار عن ظهرت عليه علامات الثراء فجاء . وسأل الرجل عن الجهة التى أخذ الطائر طريقه نحوها ؛ فقال الرجل : إنه فر مشرقاً على سمت هذا الجبل الذى يلى القصر . فجىء بمشيخة أهل الرملة فأمرهم بالبحث عن الرجل . فقالوا ما نعلم إلا رجلاً من ضحفاتنا كان يعمل هو وأولاده بيتنا . وقد ابتاع اليوم دابة واكنسى هو وولده . فأمر المنصور باحضاره فاستدناه وقال له : شئ ضاع وسقط إليك ماذا فعلت به ؟ فقال : هو ذا يا مولاي وضرب بيده إلى صرة فى سراويله فأخرجها بعينها فدهش التاجر وعرف أمانة العرب .

ومنا المعتصم الذى بلغه إن امرأة عربية وقعت فى يد الروم فباعوها فى سوق الرقيق . فلما خافت أن يندرها روى صرحت ...

« وامتصاه ، فلما بلغه الخبر قال : لبيك . لبيك . النفير .
النفير . وقام ولم يجلس .

وسار إلى أرض الروم في جيش كبير . وحاصر عمورية
حصاراً شديداً خمساً وخمسين ليلة . فلما فضاها سأل عن العربية
التي استغاثت به وقال لها : نعم . . لبيك .

ومنا الرشيد الذي دارت بينه وبين شارلمان سفارات وقد
أهدى إليه الرشيد ، الساعة الدقاقة التي دخلت أول مرة أوربا ،
كما أهداه أنواباً حريرية وتحفاً من الذهب وقردة وفيسلا
ومفاتيح قبر المسيح دلالة على سماحة العرب .

ومنا عبد الرحمن الناصر ، الذي فتح سمورة . وبينما هو
سائر بين أغاديدها طرق أذنه نحيب طفل يبكي . فلما اتجه ناحية
الصوت إذا به وليد ما يزال في لفائفه مطروحاً بين الأعشاب ،
قالتقطه واحتضنه وعاد به على طرف رداءه وفوق جواده .

وإذا بامرأة تقتحم الجمع صارخة نادية ، تسأل عن ملك
العرب فلما واجهته صرخت : أعد إلى ولى الذى اختطفه جندك
وإذا به يرفع رداءه عن الطفل فلما شاهده استفاضت دموعها
وصاحت : أيها الحاكم العربى العادل ...

ومناه الرشيد ، الذى أرسل له ، تقفور ، رسالة غير كريمة
فرد عليه ، قد قرأت كتابك والجواب ماترى دون ما تسمع
والسلام ، وقاد الرشيد جيوشه ودخل أرض الروم وكتب له
النصر ، وسقطت البلاد فى يده واحدة بعد أخرى . وولى جندها
الادبار أمام جحافل العرب حتى بلغوا أسوار القسطنطينية وجاء
تقفور يسأل الرشيد بمادنة وصلحاً . وغفر الرشيد له غدره
وصالحه وقبل منه الجزية . ٣٠ ألف دينار ذهباً .

ومناه عمر ، الذى حرم على نفسه اللحم طوال سنى الرمادة .
وكان يحمل على ظهره جرابين من الدقيق . وكبة السمن . ويذهب
مع خادمه يوزع على الناس حتى ينتهى ما يحمله . ثم يعود ويحمل
غيرها . وكان عنده ليلة أربعون ألفاً من الرجال والنساء والصبان .
وقد حلف الا يذرق سمناً ولا لحماً حتى يخلص الناس . وبقى كل
ليلة يأكل الخبز بالزيت حتى أسود لونه وقال : بئس الوالى أنا إذا
أكلت طيبها ، وأكل الناس كراديسها .

انتصرنا في كل معركة

منا خالد وسعد والمثنى الذين دكوا دولة فارس وهزوا عرس
الأكاسرة ومن حولهم جنود مجهولون كانوا يرمون أنفسهم على
العدو فيساقطون صرعى .

وهذا عتبة بن نافع يدفع حوافر فرسه في مياه البحر الأبيض
وهو يقول: والله لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر بلاداً لحضته
في سبيلك .

ومنا أبو ذر الذي قال ان النية مال الناس لا مال الحكام
وعلى الأغنياء ان يردوا فضول أموالهم على الفقراء .

ومنا قتيبة بن مسلم الذي وصل إلى الصين: وقال لامبراطورها:
ان الذي أول خيله في بلاد الزيتون واخرها في بلادهم لا يستمضي
عليه شيء .

ومنا عمر بن عبد العزيز الذي قال لواليه : ضع الجزية عن أـلم ،

قبح الله رأيك ، فإن الله انما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جانياً .
ومنا ابطال اجنادين واليرموك ودمشق والقاذسية والمدائن .
ومنا عبد الله بن المبارك . وسفيان بن عيينه . وسفيان الثوري
وداود الطائي . والفضيل بن عياض .

ومن عندنا شع نور الثقافة في جامعة قرطبة التي سبقت الازهر
في القاهرة والنظامية في بغداد .

ومنا الادريسي والمصعودي والاصطخري ، والقزويني وياقوت
الحوي وابو الفداء .

ومنا ابن قتيبة الذي قال : من اراد ان يكون عالماً فليطلب
فناً واحداً ومن اراد ان يكون أدبياً فليوسع في العلوم .

ومنا المظهر القدسي الذي يقول : وبأبي العلم أن يضع كتفه
أو يخفض جناحه أو يسفر عن وجهه . الا لتجرد له بركته
متوفر عليه . معان له بالفريضة الثاقبة والروية الصافية . مقترنا به
التأييد والتسديد قد شمر ذيله وأسهر ليله حايث النصب . ضجيع
التمب . يأخذ مأخذه متدرجاً ، ویتاقاه متطرقاً . لا يظلم العلم
بالتعسف والافتحام . ولا يخبط فيه خبط عشواء في الظلام .

منا الذين فكروا في كشف العالم الجديد . وآية ذلك قصة
الفتية المفررين الذين ركبوا مركبا واتجهوا نحو الجنوب فإذا بهم
يصلون إلى شاطئ أمريكا .

منا الذين عرفوا الرماية والجوكان (البولو) والصولجان .
ولعب السيف والترس وسباق الخيل والصيد والرماية ولعب
الكرة والشطرنج .

ومنا التجار الذين بلغوا بين القرن السابع والتاسع : الصين
شرقا برا وبحرا . وانتهوا إلى جزيرة زنجبار واقاصى شواطئ
أفريقيا جنوبا وتوغلوا في روسيا شمالا . ولم تصدم في أسفارهم
غربا إلا أمواج بحر الظلمات « الاندلتيكى » .

ومنا أعظم الملاحين . وهم الذين استخدموا البوصلة في الملاحة
واجدادنا أول من أحلوا الكاغد محل الرق . وصنعوا الورق من
شرائق الحرير .

واستغلوا مناجم الكبريت والنحاس والزئبق والحديد
والذهب . واقتنوا فن تسقية الفولاذ . واخترعوا البارود . وعرفوا
تركيب النار اليونانية . فأصبحت أداة مهمة من أدوات هجومهم

واستخرجوا قوة البارود الدافعة . واستعملوه في رمي القذائف .
واستعملوا الآلات القاصفة والأسلحة النارية .

وعرف بحارتنا العرب اليابان وجزيرة مدغشقر التي كانوا
يعتبرونها المكان الذي يفرخ فيه طير الرخ الخرافي .

والمسعودي « مؤرخنا » هو أول من وصف الطواحين الهوائية
في سجستان التي لا ماء فيها ، كما وصف الإدريسي أنابيب المياه
التي يستعملها المغاربة ، والمضخات التي تزودها بالماء في « توليدو »
ومنا الزركلي « الفلكي » الذي قال ان الظهر في بغداد يسبق
الظهر في « توليدو » بثلاث ساعات و ٢٦ دقيقة . والذي تمكن
من قياس طول البحر الأبيض المتوسط . والمرا كشي ابو الحسن
الذي استطاع ان يحدد ٤٤ مكانا في العالم

ومنا الذين أقاموا في مدينة « بالرموا » في إيطاليا ثلاثمائة
مدرسة .

ومنا الشريف الإدريسي الذي صنع الملك نورمانديا كرة
سماوية وخريطة للعالم في شكل قرص من الفضة . وضمت هذه
الخريطة صور الأقاليم الجغرافية ببلداتها وخلجاتها وانهارها
وجبالها .

منا نور الدين . وصلاح الدين . وخالد وطارق . وقتيبة .
وابن القاسم وابو حنيفة . والشافعي والبخاري وابن حنبل
والغزالي وابن رشد وابن سينا والفارابي والتميمي والخليل
والجاحظ وابو حيان وابو تمام والبحري والمعري .
ومن مراكزنا العلمية : بيت الحكمة والمدرسة النظامية
وجامعة قرطبة والازهر

« نحن العرب » : كنّا قلّة في العدد في كل معركة دخلناها ،
ومع ذلك كنّا نفتصر . انتصرنا في بدر واليرموك واجنادين
والقادسية ونهاوند والمدائن وحطين وعين جالوت .

« نحن العرب » طبعنا المجتمع الانساني على الاخلاق والايثار
يحب لآخيه ما يحب لنفسه ، ويؤثره عليها ولو كان به خصاصة .
والقوى فينا ضعيف حتى نأخذ الحق منه . والضعيف عندنا قوى
حتى نأخذ الحق له .

« نحن العرب » : علمنا شرعة الحرب الرحمة . وشرعة السلم
العدل . وجعلنا الحضارة روحا ومادة . كل أرض فيها لسان
عربي هي أرضنا .

ونحن العرب، آمنا بأن أكرمنا عند الله اتقاناً . وليس لعربي
على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أبيض . ولا لأبيض
على أحمر : فضل إلى بالتقوى .

نحن العرب : الذين حمل إلى حاكم من حكامنا نحواً من خمسمائة
ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف دينار من الذهب . لحمل
الناس كثرة المحمول على أن يحصوه بالوزن لا بالعدد فيقولوا
انه بلغ ستة أو سبعة قناطير من الذهب .

نحن العرب الذين قال عنا ، دولامر ، أننا انجزنا في ثلاثة
قرون من الاكتشافات ما يزيد على ما حققه الاغريق في عشرة
قرون ، نحن الذين قال أحدنا ، الفرج بن فضاله ، وقد أقبل المنصور
يوماً وهو جالس عند باب الذهب . وقد قام اناس له ولم يقم
فضاله . عندما سأله المنصور لماذا لم يقم له قال : خفت ان يسألني
الله تعالى لم فعلت . وبسألك عنه لم رضيت .

مننا أبو بكر الخليفة الاول الذي لم تغير الخلافة منه شيئاً .
داره وحياته ولم يكن له سلطان مطلق ولا طبقة معينة .

انه ابو بكر الذي قال : ان الله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار ،
وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل .

قوة شخصيتنا

عرفت « شخصيتنا العربية » في تاريخها الطويل بالبطولة وانتصار الذات والوفاء بالعهد . لم تكن البطولة في تاريخنا مظهرا أو عملا مسرحيا يراد به الشهرة أو استعراض العضلات . إنما قام على أساس أنه رسالة حققة خالصة مجردة من الهوى أو المطامع .
والعل هذا هو أبرز ملامح شخصيتنا العربية في التاريخ ، أنه يمثل صورة من العمل الموحد الجماعى الضخم السريع ، لأم مندفعة إلى الامام ، لا تؤمن بالمظاهر ولا تحرص أن تقف أمامة الاضواء .

وعندما خرجنا إلى أطراف الارض بعثنا في كل مكان ووحا جديدة ، كنا مثلا أعلى في المعاملة . أحبنا كل من عرفنا ، لأننا لم نكن غزاة أو طامعين . ولكننا كنا روحا جديدةا يمنع النور والضياء .

أما في وطننا الكبير فقد رفضنا كل عدوان . وقاومنا كل دخيل ، لم نقسّم أبدا . أذبننا الأمم والمذاهب في كياننا .

وكان دورنا في الحضارة إيجابياً قوياً . أخذنا الثقافة والعلوم
فنقلناها وأضفنا إليها . وأنشأنا ثقافات جديدة وفنونا من العلم
والحكمة والفلسفة .

وعندما هوجمنا من الفرنجة دافعنا بعزم وقوة وسحقنا العدو
فلما وقع ملوكهم في قبضتنا عفونا عنهم . وعاملناهم بسماحة رائعة
هزت أوروبا فسجلت رغم التعصب رجولتنا وسماحتنا . استبسلنا في
حطين وفي عين جالوت وفي دمياط . وأسرنا لويس في المنصورة
وعفونا عنه . وأسرقنا قلب الأسد في فلسطين وعاملنا بسماحتنا .

كنا أقوىاء في الدفاع والعفو على السواء . علمنا الدنيا الوفاء
والإسالة معاً . وقد عرفنا بالمناعة في كل منطقة من مناطق أرضنا
البرية . ظهرت مناعتنا في مقاومة الهكسوس . ومقاومة الصليبيين
في سبع حملات صليبية استمرت أكثر من مائتي عام لم تستطع
في خلال قرنين أن تقهر روحنا أو تخضعها ، بل على العكس من
ذلك ضعفوا هم لروحنا ونقلوا من مذاهبنا وتقاليدينا .

وعلمنا الدنيا المدنية وسبقنا الغرب إليها إذ بينما كانت شعوب
الفرنجة والسكسون والجرمان تعيش في الأكواخ ويعتلى ملوكهم
وأشرافهم قمم الصخور في القلاع المظلمة ، كنا في الأندلس نشيد

القصور القوراء . وزرد الحمامات ونفتح أبواب جامعاتنا في قرطبة
للعلماء والمثقفين .

وفي أوروبا . بعد جلائنا عن الأندلس وجنوب فرنسا وإيطاليا
استمر نفوذ حضارتنا وثقافتنا عصوراً طويلة يطبع حضارة هذه
الأمم بطابعه الواضح .

ونحن مازلنا في برقة ونجد وبحر العرب والفرات ولبنان
والأطلس ومصر أمة ذات مزاج مشترك لها عقيدتها ولسانها
وعارضتها القوية . مامتنا وإن عشنا النعاس لحظة ، ثم أفقنا
لنخطو خطوات واسعة ونسترد مكاننا ..

وعلى شواطئنا تحطمت كل موجة ، تحطمت موجة الصليبيين
بعد معارك ودماء . وقاومنا الغزو التتري بقوة . هذا الغزو الذي
يزحف من قلب آسيا حتى وصل بغداد . ثم اتجه نحو الشام
وزحف إلى فلسطين في عمليات تخريب ضخمة . فلما وصل رسل
هولاكو إلى مصر يحملون رسالته إلى مصر بالتسليم شقق المظفر
قطر الرسل وعلق رؤوسهم على باب زويلة واندفع بقواتنا يرد
المغبرين عن أسوار غزة .

لقد كنا رمزاً على العظمة والقوة سواء في صفحات أجدادنا

أو صفحات هزائمنا . فعند ما كنا نفتح للبلدان ونذيع النور
والحضارة في العالم كله كنا غاية في التسامح والحفاظ على
الكرامة والرغبة في السلام والأخاء .

وفي مواقف هزائمنا عندما أخرجنا للفرنجية من الأندلس كنا
رمزاً خالصاً على الاستشهاد والمقاومة الخالصة الجريئة التي لا تقبل
الضميم ولا تستسلم للتعذيب . ولكننا تظل إلى اللحظة الأخيرة غاية
في القوة والإيمان .

وصهرت المحن العرب فما من أزمة من الأزمات الضخمة التي
كانت تلم بوطنهم الأكبر إلا واجهوها بشيء كبير من العزيمة
والإيمان والثبات . وبرصيد ضخم من المقاومة المستمرة التي
يبدل فيها أغلى ما يملك وهو الروح والدم .

ويرجع هذا البذل إلى أن الروح العربية هي الإيمان بالفداء
والبذل والحرص على الموت في سبيل غاية كبرى : وقد كان هذا
الحرص سبباً مباشراً للاتصارات التي حققناها في جميع المعارك
مع خصومنا بالرغم من أننا كنا في أغلب هذه المواقع أقل عدداً
ولكن الإيمان بالفداء والاندفاع إلى العمل ونحن موقنون بأننا
نموت في سبيل شرف عقيدة أو فكرة صادقة كان دائماً يؤدي
إلى النصر .

في مرحلة المقاومة

قاومنا الصليبين

هاشت الشخصية العربية مرحلتين : مرحلة القوة والقيادة-
والفتح . مرحلة المقاومة والنضال ضد الموجات الغاصبة المتعددة.
التي واجهتها أمدأ طويلا .

ولعل قوة هذه الشخصية وتألقها وانصقال معدنها يظهر في مرحلة
المقاومة بأوضح مما يظهر في مرحلة القيادة .

ذلك أن الاعمى في أوج قوتها ونصرها واندفاعها ، إنما تكون
محاطة بهالات من البريق تضيفها الاحداث والمظاهرات . ولكن
حقيقة جوهر الشخصية إنما تظهر في فترات المحن . عندما تتكشف
أمام الاحداث ، وتزوعها تلك الاثواب . وتعمى عن واقعها
الحقى ، وهي في هذه المرحلة إما أن تنهار أمام الغاصب وتفسحق
إزاء مؤامراته وتستسلم وتركن إلى الذلة . وتبديل ملاحمها
فتكون صورة مكررة تقليدية من القوى القاهرة ، ونمضى معه
مشدودة عليه قد مسخت وضاع واقعها ولم يعد أمرها إلا ذكرى
تاريخية . وإما أن تواجه الموقف في قوة ، فلا تنهار ، وتتكشف

عن قدراتها الكامنة في الصبر. والمقاومة والمحافظة على كيائها وذلك .
ماحدث بالنسبة للشخصية العربية .

فمنذ عام ١٠٧٢ حتى اليوم ، وفي خلال ثمانمائة وثمانين عاما لم يتوقف هذا الغزو . ولم تتوقف الشخصية العربية عن المقاومة والنضال .

بدأ الغزو الصليبي للارض العربية في حملات متتابة لم تتوقف .
وبعد قرن ونصف قرن بدأ الغزو التتري للارض العربية . ولم
تلبث جائحة ثالثة أن هاجت الارض العربية . وهي الحملة العثمانية
(١٥٠٣ م) وجاءت الجائحة الرابعة عام ١٧٩٣ في صورة الحملة
الفرنسية التي كانت مقدمة للغزو الاستعماري الحديث الذي استمر
حتى اليوم في صوره المتعددة : الفرنسية والانجليزية والإيطالية
والاسبانية .

كانت هذه الحملات ترد أرضنا لتحطم للشخصية العربية مواجهة
إيانا بالعدو والتآمر . فلا تلبث الشخصية العربية القوية الصلبة
أن تواجهها بالقوة والصبر والتجمع . وقد يطول بها المقام . ولكن
المقاومة لا تلبث أن تدمر قواعدها وتحطم مراكزها فلا تجد
سديلا إلى البقاء .

وتوالى الحملات الصليبية في خلال قرن ونصف قرن على الأرض العربية في عنف . واتصال في تسع حملات صليبية ، كان خلالها أصحاب الاطباع في التملك والسلطان يسوقون الجماعل التي لم تكن تعرف غاية واضحة إلى أرض العرب ، حيث وقف منهم . ألفاً على أبواب بيت المقدس الذي لم تكن تزيد حاميته على ألف رجل . وطال وقوفهم شهراً ثم اندفعوا إلى المدينة يعملون السيف في رجالها ونسائها وأطفالها حتى شوهدت أكوام الروم والايدي والارجل ، في شوارع المدينة ومربعاتها . وكانت الارجل تغوص في برك من الدماء . وقام منذ ذلك الوقت احتلال صليبي في أرض العرب بمثل في أمارتين وعملية لا يمنية .

وعبر البحر إلى ساحلها العرب ألوف وألوف من العرب . جاءوا ليحطموا الشخصية العربية في مكانها وأرضها ، ولكن هل استطاعت هذه القوات التي كان يقودها ريتشارد قلب الاسد ولويس التاسع وغيرهما أن تحقق غرضها ...

إن الذي حدث هو أن الشخصية العربية ، تجمعت في شخص نور الدين ثم في قيادة صلاح الدين . وواجهت هذا الخطر مواجهة رائعة حاسمة ، لقد واجهت الشخصية العربية في

يخطة مستمرة هذه الحملات وسحقها واحدة بعد أخرى، في فلسطين ودمياط وعين جالوت والمنصورة.

كانت هذه الحملات تياراً جائحاً مفعماً بالحق والقدرة وأريد به تحطيم هذه القوة العملاقة التي تسيطر على هذه المنطقة من الخليج إلى المحيط.

لقد كان اللقاء مربراً صمدت له الشخصية العربية وعرفت قوتها وأصلاتها وهي تواجه الخطر الجائح الضخم المستمر الذي كان متصلاً لا يتوقف ويهاجم في غير مكان. ثم يستقر في الإمارات على شاطئ فلسطين في مواجهة البحر ليمتد شمالاً إلى سوريا وجنوباً إلى مصر.

لقد جمع صلاح الدين الأمة العربية لمواجهة الخطر في وحدة. ثم دفع جيوشه لتقضى مضاجع الفرنجة الغاصبين. فاحتل طبرية بعد حصار دام ستة أيام وعلى مقربة منها جرت معركة حطين، حيث هاجم صلاح الدين في جيشه العربي عشرين ألفاً منهم خانتصر عليهم. وقتل أرنؤط الذي نقض العهد بين العرب والصليبيين مرات ومرات. وارقع بقوافل العرب. ووجه أسطولا أخذ يعيث بشواطئ الحجاز فساداً وينزل الأذى

بجواكب الحجاج . وكان صلاح الدين قد أقسم ليقضه بيده .
وبعد صلاح الدين فله شكراً فلما رفع رأسه وجد رءوس
الفرنجية وقوفاً بين يديه في الاغلال جودفرى ملك القدس .
وصاحب حصن حبييل وابن ملك طبرية .
وهذه سيدة مسيحية تبعث له رسالة : إنها زوج صاحب
طبرية تطلب الامان من السلطان . وأمنها السلطان وأعادها
محرزة مكرمة .

صلاح الدين وخطين

جاءت « خطين » ، بعد احتلال الفرنجة للساحل العربي بتسعة
وثمانين عاماً كرد حاسم على العدوان . وإعلان واضح على
اليقظة . بقيادة صلاح الدين الجندى الذى لا نظير له فى ميادين
القتال . والسياسى الماكر الذى لا تغلبه مناورات الفرنجة .
والرحيم العادل والخضم الشريف . الذى عرف الفرنجة هذا منه
وتأكدوا بأنه لا يغدر ولا يخون .

وحمل « صلاح الدين » ، لواء الوحدة الذى مهد له محمود نور
الدين . فدانت له المنطقة كلها بالقيادة . رأت فيه أملاً الذى طالما
ترقبته ، خلال سنوات طوال كانت تفتظر فيه « منقذ العرب » ،
من برقه وماحولها من ناحية المغرب . ومن اليمن وبلاد النوبة
فى الجنوب . ومن ديار بكر والجزيرة واربميه من ناحية الشمال
والشرق ، تنادت هذه الديار كلها إلى « صلاح الدين » ، بإيمان
صادق بالوحدة لمقاومة العدو الجاثم على قلب فلسطين . جمعها
الكلمة الخالدة . . « والقومية العربية » .

وتعددت أحداث الفرنجة في نقض الهدنة ومطاردة العرب
والإيقاع بهم ، والغدر والدس . . ولكن صلاح الدين كان
يقول بإسم الشخصية العربية التي يمثلها . . إني لاستحي من
الله أن يراني ناقضا للعهد وإني لاستحي من نفسي أن أكون
كاذب الوعد . وما النصر إلا من عند الله .

ولما أنهت الهدنة كانت المنطقة كلها تتأهب لموقعة فاصلة .
تقدحان الوقت لأنقاذ شرف العرب أن عرض الفرنجة هذا
الشرف للهوان مرات ومرات في هجرهم الغادر على حدودنا .
وما كان يحول بيننا وبين الشار لكرامتنا إلا فترة حددناها
ومهلة قدرناها .

ونادى صلاح الدين : يا خيل الله أركبي . واندفعت كتائب
القومية العربية إلى حطين : كان جيش سوريا وجيش مصر وقد
امتزجا بقيادة صلاح الدين يندفعان قوة واحدة نحو الشار .

كانت الشخصية العربية تعرف واجبها . أنها تفقظ طويلا
وتعرف الاناة ولها القدرة الكاملة على ضبط أعصابها ، حتى
لا تخفر اليهود وندع العدو يقيم الحجة على نفسه بغدره ، ثم إذا

بها تضربه ضربة مذهلة ، وتطحنه طعنة تحطم كيانه وتزلزل أقدامه ...

وتساقط الحصون في طريق صلاح الدين تباعا . وانقرط عقدها ، ووقف السلطان تجاه البحر ومعه القاضي الفاضل والقاضي ابن شداد ، على الساحل الذي كان في يد العزيمة ثم خلاص للعرب وكان البحر هائجا وتكلم السلطان قال : أيها القاضيان : أما أحكى لك شيئا في نفسي . متى يسر الله فتح بقية الساحل فأني سأوصي واودع . وأركب البحر إلى جزائره . أتعقب العزيمة فيها حتى لا أبقى حول فلسطين عدوا .

ومضت الشخصية العربية تسترد حقها . وتأخذ بثأرها ، إلى عسقلان ، أربعة عشر يوما حاصرتها القوة العربية ثم أتم الله لهم النصر فاستسلمت .

وانجمت الكتيبة إلى القدس . ذكريات كريمة تطوف بقلب صلاح الدين ، وروحه . هذه وقفة على أبواب المدينة المقدسة وقفها من قبله عمر بن الخطاب ، فاتح القدس الأول .

وحاصرت قوات العرب ربى القدس ، ووقفت متحفزة . ونادى صلاح الدين يا أهل القدس من الفرنجة . أعلدوا أناسا

نحن العرب نقدر هذا البلد كما تقدسونه . ولنا نرغب في أن
تعرض له ولا لاهله سوء . فإذا شئتم سألتم مسلمي . والا فبرغمي
أن أحاربكم في هذه الأرض المقدسة .

وكرر على الفرنجة التسليم . وتحرك صلاح الدين نحوهم بجيشه
وطاف حول أسوارهم خمسة أيام كاملة . وقرر أن يقتحم المدينة
من ثغرة اختارها ، وعرف الفرنجة أنه لا سبيل للمقاومة ، لقد
تأكدوا الهلاك . وسرعان ما طلبوا الصلح . وها هو إيليان ،
صاحب الرملة الذي أطلقه السلطان يوم حطين بعد أن تعهد بأن
لا يحارب العرب ، يخفر عهده ويحارب ، ثم يتقدم
ليطالب الصلح .

وقال إيليان : يا أيها السلطان : انكم قوم تحبون الموت
ولذلك فقد وهبت لكم الحياة . فإذا كان لابد من الموت فنقتل
أبنائنا ونساءنا ونحرق أموالنا ومتاعنا .

وقال صلاح الدين : اني لا أحب الظلم ولا أرضاه . اني اسمح
لكم بالرحيل عن المدينة في مدة لا تزيد عن أربعين يوما . على
أن يدفع الرجل عن نفسه عشرة دنانير . وإلا فهو أسير .

ورفض صلاح الدين أن يشهد القوم وهم يغادرون البلاد

حتى لا يؤذى كرامتهم أو يجرح عزتهم . ونادى مناديه في الفرنجة
هل من فقير فنأويه ، هل من عاجز فنعفيه من فدية لا يستطيع
دفعها . ويمجزه الحصول عليها ..

وأصدر عفوه عن سبعة آلاف من المعزة والمساكين ثم
أعطى عشرة آلاف من الفقراء . وتقدم فوج كبير من الفرنجة
منهم من يحمل أبويه الضعيفين ، ومنهم من يحمل أخوته المرضى
وبكى السلطان وأمر بأن ترد لهم الفدية ، وأن يؤتى لهم بالدواب
ليركبوا .

وخرج البطريق بمال كثير . لم ينفق منه شيئاً في اقتداء بتم
أو مسكين أو فقير . وأشار القادة على صلاح الدين أن يأخذ ماله
للجيش . ولكن السلطان رفض وسمح له بالخروج .

وقال : لا . ما كان لنا من حق في ماله إلا الدنانير العشرة
وغيرى من يغم المال عن طريق القدر .. دعوه يخرج !

ومضت الأيام الأربعون . ودخل جيش العرب القدس .

ووقف صلاح الدين عند الصخرة الشريفة . وقال : ألا انبشكم
بهذا النصر الذى احرزناه : إنها مصر وسورية حين اندمجتا في

في جيش واحد . وحقق هذا الحلم الذي كان بعيدا : تحرير فلسطين
وانقاذ القدس .

ولم يبق في حوزة الصليبيين إلا انطاكية وطرابلس وصور
وبعض المدن الصغيرة والقلاع ..

ولكن هل توقف الفرنجة أمام بقعة الشخصية العربية
وانتصارها ؟

لقد استشاطوا غضبا . وتجمعوا بعد أن تركوا خلافتهم
القديمة فرديريك بربروسا امبراطور ألمانيا . ورينشارد قلب الاسد
ملك إنجلترا . وفيليب أوغسطس ملك فرنسا . واندفعوا على
رأس حملة ضخمة زاحفة إلى أرض العرب لسحق الشخصية
العربية المعلاقة .

أما فرديريك ففرق وهو يعبر نهراً في د كيلييكية ، فارتد
معظم أفراد جيشه . أما رنشارد فاحتل جزيرة قبرص لتكون
ملاذا للصليبيين المهزومين .

ثم اتجهت القوات الزاحفة المجمع من شذاذ الآفاق وشرازم
المغامرين إلى دكا . . ظنا منهم أنها الثغرة التي تصل بينهم وبين
الأرض التي فقدوها . ووصلت قوات بقيادة صلاح الدين لانقاذ

المدينة . ونهب القنال برأ وبحراً . ودام حصار العرب للمدينة
عامين كاملين . . مما اضطرت بعده الحامية الافرنجية إلى التسليم
للعرب .

ولس ريتشارد عظمة صلاح الدين عن قرب . ورأى فيه
صورة الشخصية العربية بقوتها وإيمانها ورحمتها . وأدرك أن هزيمة
غير ممكنة بعد أن وحد الأمة العربية كلها تحت لوائه . واختفى
ذلك الصنف من الخونة التي يعتمد عليه الدخيل .

وقد وصف العماد الاصفهاني حمله الفرنجة على العرب بقوله :
« خرجوا من ديارهم يخطبون غاشية الموت . ونفروا من وراء
البحر يطلبون أمامهم من البرناشبة الصوت . شقراً كأنما لفحت
النار وجوهمهم . وهم فيها كالخون . زرقاً كأنما عيونهم من حديد .
قد نزع الله الرقة من قلوبهم ونقاها إلى غروبهم . واشتعلت نار
جهلهم . تستعيز المروءة من مروءتهم . ويدعى للنار بالعون على
الاطلاع على أفئدتهم . فظاظ غلاظ جهنميون ، كلامهم شرر .
وأنفاسهم شواظ خاق الله الخلق من طين ، وخاقهم من
حجارة ... »

وقد عاش صلاح الدين حياة خضبة عريضة . تمثلت فيها

للشخصية العربية في أروع صورها . بهر بتصرفاته وخلقه وشهامته
والفرنجية ، وصنع مثاليه ، عاشت مع التاريخ ، فقد علم الغرب
معاني القروسية العربية في شجاعتها وحماستها .

وعاش حياته في نضال لم يتوقف . واجه الحملة البرية التي
أرسلها الصليبيون أول الأمر إلى دمياط . واستقرت خمسين يوماً .
ثم جمع الأمة العربية في وحدة وعقد بينها اتفاقاً .

وكان يقول لحكام الموصل وسوريا : « كونوا يداً واحدة ،
وأعضاء متساندة وقلوباً يحمها ود . وسيفوا يضمها غمد
فالعداوة محذقة بكم من كل مكان ... »

دعنا نقاتل العدوين الباطن والظاهر : ونصبر الضدين المنافق
والمحتل . حتى يأتي الله بالنصر ... ،

ورسم صلاح الدين أهدافاً واضحة لتخليص الوطن العربي
من الصليبيين وقد بايعته الأمة مبايعة كاملة وآمنت به . وامتلات
قلوبها ثقة بأنها حين يتجمع ورايه إنما تكتب صفحة النصر .
وقد تحق النصر فعلاً ...

... لقد كان صلاح الدين صورة صحيحة للعربي المسلم

تقياً محافظاً على الصلوات . وقد برهن على كرمه وبخائه وسعة
 قلبه ورحمته بهباته لريتشارد ، وحسن معاملته الأسرى .
 ولصلاح الدين صفات العرب في الجلد والصبر ، وإلى هذه
 الصفات شجاعة في حماسة . فقد اجتمعت له كل الفضائل . وداعة
 أخلاق . ورأفة بالضعيف . وأمانة لا يتسرب إليها الوهن . وشفقة
 لا تقبل . وإكرام للضعفاء والنساء . وهو يعتبر في التاريخ الرجل
 الذي أوقف زحف الغرب على الشرق . وأرجع الموجة إلى الغرب .
 وهو رجل قد وحد الشرق المبعثر وهو رجل مقدس حقق في نفسه
 أعلى الفضائل والمثل العليا الإسلامية .

هكذا تصور دائرة المعارف البريطانية الشخصية العربية بمثلة
 في صلاح الدين . وقال صاحب النواذر السلطانية : أن صلاح
 الدين كان من عظماء الشجعان ، قوى النفس شديد البأس . عظيم
 الثبات لا يهوله أمر . وكان يعطى إذنا لجنوده بزيارة أهلهم ،
 في أول الشتاء ويبقى في شردمة يسيرة في مقابلة عددهم الكثير .
 وكان لا بد له أن يطوف حول العدو مرة أو مرتين كل يوم ،
 وما استكثر العدو ولا استعظم أمرهم قط . ولقد انهزم المسلمون
 في المصاف الأكبر بمرج عكا حتى القلب . ورفع العلم ، وهو

رضى الله عنه ثابت القدم في نفي يسير حتى انحاز إلى الجبل
يجمع الناس ويردم ولم يزل حتى نصرهم الله على العدو في ذلك
اليوم ،

وقبل ذلك كان يجلس للعدل كل يوم اثنين وخميس ، في مجلس
عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء . ويفتح الباب للمتحاكين
حتى يصل إليه كل أحد . من عبوز هرمه وشاب صغير وشيخ
كبير . وما استغاث به أحد إلا وقف له وازال ظلمه . وانتصف
للظلمة وإن كان المشكو منه أقرب الناس إليه .

هذه ملامح صلاح الدين ، وهي على التحقيق ملامح من
الشخصية العربية .

واسرنا لويس

أما ملحمة طويلة من ملاحم الصراع والكفاح والدفاع عن الأرض تتابع فيها أفواج الباغين الطامعين فوجا وراء فوج . ولكن الشخصية العربية اثبتت أن روح الفروسية والكفاح ، رد العدوان ومقاومة الطغاة . أصيلة فيها فواجهت هذه الأفواج بأفواج وقاومت هذه القوى بقوى . كانت الصفوف تتقدم فتتأخر ، وتتقدم صفوف أخرى . صفوف تدافع عن الشرف وتذود عن الذمار . وترد عادية المقتصب . صفوف قاومت ولم تستسلم وقدمت الضحايا والشهداء . ولم تتوقف عن البذل والتضحية . خرجت ، الشخصية العربية ، رجالا ونساء كبارا وصغارا تحارب المندفعين على أرضها في الصحراوات والموانئ والسواحل والبيادر ... ما أن يدوى النفير على شواطئ مصر أو فلسطين . وما أن تسمع بأن حملة وصلت حتى يحمل العرب السلاح صفوفا وراء صفوف . تقاتل وتستشهد .

وانهارت قوة الفرنجة تحت ضربات صلاح الدين بعد ثمانين

عاما . وارتد الفرنجة إلى قلاعهم على الساحل . ولكن هل اوقفت
أوروبا عدوانها . وهل توقفت حملاتها ؟

انها رأت أن مصر هي القوة التي تقف في وجهها . لذلك
اتجهت الموجه إلى مصر في حملتين صليبيتين كبيرتين .

نزات أولاهما أيام الملك الكامل ولم تلبث ان هزمت
واضطرت إلى ان تعود بعد هزيمتها حيث قطع العرب جسر النيل
فطغى الماء مساحة كبيرة من الارض على جانبي النيل أذهبت
الامل في زحفهم نحو القاهرة فاحرقوا خيامهم وحطموا مجانيقهم
وانسحبوا في جنح الظلام

ولم يمض أكثر من ثلثي قرن حتى حشد لويس التاسع حملته
الكبرى التي قصدت مصر . ونزلت ظاهر دمياط واتجهت إلى
المنصورة . فلقيت الهزيمة الساحقة . واسر لويس في بيت لقمان .

كان الفرنجة يتقدمون نحو شاطئنا العربي الطويل الممتد من
الاسكندرونة إلى الدار البيضاء في خلال ثمانية قرون يحملون
أطعما مادية مريرة وتنافسا على الملك مرة وعلى مناطق النفوذ
مرة وهي البترول مرات ... كانوا يتقدمون وهم على يقين من

أن الشخصية العربية قد غفت وأنها إن تقاوم ، فإذا بها تواجه
من الجحافل المؤمنة بأرضها ووطنها وحقها في الحياة . تواجه
بأعنف مقاومة .

وصدق « أدوار جييون » مؤرخ الدولة الرومانية حين قال
« لقد قامت الحروب الصليبية على مبدأ التعصب الوحشى، وكانت
أهم النتائج مشابهه للسبب . كان كل حاج يطمع في الرجوع
بأسلابه المقدسة من آثار اليونان وفلسطين . وانبثق من النبع
المخرب للحرب المقدسة نظام محكمة التحقيق وجماعات الرهبنة
المتسولة ثم مفسدة الرخص الدينية ثم تقدم الشعارات الوثنية .
وفتك روح اللاتين الناهض بحيوية عقلم ودينهم . . »

وعندما احتل الصليبيون « دمياط » . أمضوا ستة أشهر
في اللهو والخلاعة أتاحت للعرب في مصر تعبئة قواتهم . . وتقدم
الصليبيون على الضفة الشرقية ، فاستولوا على مدينة فارسكور ،
ثم واصلوا التقدم حتى اقتربوا من المنصورة . هنا لك ارتطموا
بأول مانع مائى وهو بحر اشموم . . حيث كانت القوات العربية
ترابط على ضفته المقابلة لا يفصلها عن العدو إلا مياه الزرقاء .
وقد تأهبت بحفر الخنادق وإقامة المتاريس والمجانيق وقاذفات

الاحجار . واحشدت سفن الاسطول العربى فى النيل أمام
المنصورة . ثم بدأ القتال وحى وطيسه . وأشد التراشق بين
العرب والفرنجية . عبر بحر اشموم . ولما أدرك الصليبيون فداحة
خسائرهم اتجهوا إلى عبور المانع المائى . وعمدوا إلى إقامة جسر
كبير يعبرون عليه . وقد حصنوا هذا العمل الحربى بإقامة أبراج
خشبية وقف عليها النبالة وحملة القسى لمواجهة المعسكر العربى
حتى لا تتوقف عملية العبور . . غير أن الشخصية العربية لم تلبث
ان قامت بعمل حربى مضاد يفسد محاولة الصليبيين ، فقد حفروا
حفراً واسعة عميقة فى الضفة التى يقيمون فيها ، فكانت المياه
المحجوزة من الجسر تملأ تلك الحفر ، مما يترتب عليه ظهور تيار
سريع يتلف الشاطئين فينهار ما اقيم من الجسر . .

وبينا الصليبيون بتحسسون الضربة القوية ، واجههم الجيش
العربى باستخدام سلاح مدهل ، فت فى عضدهم وحطم أعصابهم ،
ذلك هو النار اليونانية ، .

كان ذلك ذات ليلة ، عندما اندفعت شعلات رهيبه من اللهب
عبر آلات قاذفة على معسكر الصليبيين ، حملت الدمار والهدم ،
وبلغ الهول مداه بين الفرنجية .

وقد صور هذا الرعب «جيرا نقيل» في مذكراته . . . وفي ذات ليلة بينما كنا نحرس الأبراج حدث أن العرب احضروا آلة لم يستعملوها من قبل . ثم قذفوا منها بشيء ملأ قلوبنا بالدهشة والرعب ، نار مستقيمة كأنها اسطوانة وذيلها من خلفها مثل الحراب الطويلة ، ودويها يشبه الرعد ، وكأنها جارح يشق الهواء ولها نور ساطع جداً من جراء انقشار اللهب الذي يحدث الضوء ، حتى انك لترى ما في المعسكر كما لو كان وضوح النهار ، وقد رمى العرب علينا في هذه الليلة ثلاث مرات من الآلات الكبيرة . وأربع مرات من القسي العريضة . وكان ملكنا القديس كلما سمعهم يقذفون النار اليونانية ينهض من فراشه ويديسط يده ويقول : احفظ رجالى ،

كانت النار التي قذفها العرب مدمرة ، سحققت أسوار الصليبيين وأبراجهم الخشبية التي أقاموها على ضفة بحر اشموم . . وظلت سيفاً مهلتاً كلما حاولوا إقامة أبراج جديدة . تلقى الصليبيون وابلا من هذه الصواعق الجهنمية . . فإذا بها تلتهب ثم تصبح رماداً . . وأحس الفرنجة انه لا أمل في البقاء ، ولا في النصر ،

وملا اليأس قلوبهم . وعجزوا عجزاً شاملاً عن عبور بحر
أشموم الضئيل .

غير أن الفرنجة وجدوا مخاضة مأمونة ، قليلة الماء ، فاتجهوا
إلى عبورها إلى المنصورة . وبدأت المقدمة المكونة من ألف
واربعائة فارس ، تقتحم الطريق إلى المنصورة ولم تلبث أن
وجدت نفسها في شوارع المدينة في عزلة تامة .

لم يغب هذا عن « بيبرس » الذي اهتبل الفرصة ، ودبر خطة
بارعة للقضاء على مقدمة الصليبيين ، فحال دون تقدم القوات
إلى داخل المنصورة بينما طارد فرسانه المقدمة ، وانقضوا عليها
كالسيل ، فابادوا فريقاً كبيراً منهم بينما أخذ أهل المنصورة
يقذفون الفرنجة بالرمال المحمى بالنار والاحجار من الأسطح
والنوافذ وتم لأهل المنصورة إبادة القوة عن آخرها . .

وكان على قيادة جيش العرب « فارس الدين أقطاي » الذي
التحم مع الصليبيين في قتال مرير ، بينما كان الرماة يقذفون
الصليبيين بالنار ، مما عجل باندفاع الفرسان العرب لاختراق
صفوفهم وانزال هزيمة ساحقة بهم .

وتفقدت فيهم الامراض والابوة والحيات ، وعمت معسكراتهم
آفات الاحتضار ، وشبهات الموت .

ودرت المقاومة العربية الفتية ، خطة محكمة للفضاء على
جيش الصليبيين بعزله ، وقطع خطوط مواصلاته ، حيث كانت
ترد منها الامدادات عن طريق النيل .

وقد صنعوا عدة سفن ونقلوها مفسكة على ظهور الجمال ،
إلى بحر المحلة ، شمالى بحر أشموم ، وأنزلوها بعد تزويدها بالمقاتلين
فلما جاءت سفن الصليبيين من دمياط إلى بحر المحلة ، تحمل
الامدادات خرجت لها السفن العربية من مكانها ، وأحاطت
بها من كل جانب ، وظفروا منها بمائتين وخمسين مراكباً . وقتلوا
وأسروا نحو ألف من بحارتها وجميع من كان في السفن من
الافوات والمؤن ، وواصل الاسطول العربى شن هجماته ضد سفن
التنوين الصليبية القادمة من دمياط . وبذلك حلت مجاعة مروعة
فى معسكر الصليبيين ولم يجدوا أمامهم إلا أسماك النيل والحشائش
وجذور النباتات .

وأحسن الفرنجة بالهزيمة الماحقة ، وقرروا العودة إلى دمياط
تاركين معسكرهم الزاخر بالخيام والذخائر والمهمات لقمة سائغة .

وعبر الصليبيون بحر أشموم على القنطرة الحشبية التي أقاموها
ونسوا أن يتلفوها بعد عبورهم ، فانهجت المقاومة العربية وراهم
على ذلك الأمر ، وبدأوا في مطاردتهم بلا هوادة . . فما أن وصل
الفرنجية إلى فارسكور حتى كانوا قد خسروا ثلاثين ألف مقاتل .

وكان الجيش العربي المصري قد قطع خط الرجعة عليهم ،
فمنعهم من التقدم إلى دمياط . ثم أحاط بهم . وقذفهم بوابل من
القذائف المدمرة فابيد أغلبهم وأسر الباقون .

واضطر لويس أن يلتجئ إلى قرية د منيه عبد الله ، التي تقع
شمالى المنصورة . وساد الذعر معسكر الصليبيين ، ونادى مناديتهم ،
« سلخوا أيها الفرسان فإن الملك يأمركم بذلك ولا تمتنعوا فيقتل
الملك ، . . . »

ولما أحاطت المقاومة بالقرية أدرك أن المقاومة قد أصبحت
عبثا فلم الملك ورفاقه أنفسهم بعد أن أمنوهم ، ونقل الملك
في الحال على إحدى السفن إلى المنصورة حيث سجن في دارنجر الدين
بن لقمان . وبلغ عدد أسرى الصليبيين أكثر من اثني عشر
ألف أسير . . .

ورفض العرب إطلاق سراح الملك إلا بعد دفع فدية تبلغ

أربعمائة ألف دينار . وبلغت خسارة الفرنجة في هذه الحملة خمسين ألفا غير ويلات الجوع والمرض .

وذكر « لويس » وهو خارج من مصر بعد هزيمته الساحقة خطاب الملك الصالح إليه وود لو كان قد أخذ بما جاء به ورد كتابك وأنت تهدد فيه بكثرة جيوشك . وعدد ابطالك ، ونحن والله ارباب السيوف . ما بغى علينا باغ إلا دمرناه . . فلو رأيت عينك أيها المفرور حديد سيوفنا وعظم حروبنا وفتحنا للحصون والسواحل . وفتحنا منكم بالاولاخر والاوائل لكان لك أن تعض على أنا ملك بالندم . ولا بد أن يزل بك القدم من يوم أوله لنا وأخره عليك . هنالك تخيب الظنون وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بأذن الله والله مع الصابرين .

ولكن لويس فيما يبدو قد بيت السكيد مرة أخرى للعرب ، فدفع أمامه حملة خامرة على تونس وصفت بأنها الحملة الصليبية التاسعة بعد عشرين عاما من المنصورة ، حيث دفع حياته ثمنا لها .

وهزمتنا التتار

إن الشخصية العربية لتعطى أبرز خصائصها حين تعرض بجانب المقاومة الطويل فهي تبدو في قمة عالية عملاقة ، وهي تقاوم الغزاة منذ ثمانمائة عام ، لم تهن ولم تتراجع ، ولم تتوقف . . حين لم يتوقف الغزاة أيضاً ، إلا ليستعدوا لجولة جديدة وزحف جديد . .

أنهم غزاة من أماكن متعددة ، فلقد انهزم الفرنجة في أكثر من حملة ارتدت على أديار ما بعد أن سحقها العملاق العربي الذي كادوا له وطعموا في سحقه . .

وفي هذه المرة يأتي الغزاة من الشرق . من أواسط آسيا يدفعهم الطمع والغدر والظلم ، في نفر بهم حقد أسود على « الشخصية العربية » التي لم تكن يوماً ما غدره أو متسلطة ، مندفعين إلى هذه الرقعة الطيبة الكريمة الغنية ، منبع الروحانية ومصنع البطولة ، بجيوش حرارة لشد الشمس ، وأسلحة براقة ، وقوى وعتماد ،

ونفوس مليئة بالمطامع والغدر ، وفي أعماقهم ظمأ إلى الدم
والظلم ومعهم أساليبهم في الإبادة والقتل والتشريد .

جاءت جائحة د التتار ، تشق طريقها أربعين عاما . . فإذا
هى تدمر وتخرّب وتطفىء المزارات ، ثم إذا هى تأتلف مع
الصليبيين ليقوم بينها حلف لمحق الشخصية العربية ومحوها . .
ولكن أنى لهما . . د الصليبيون والتتار ، أن يواجهوا
الشخصية العربية فى قوتها وصمودها ومقاومتها وصراعتها . . لأنها
ترد الضربة بأقصى منها ، وتواجه المحنة العاتية بالصبر الجليل ، فما
أن تلتقط أنفاسها ، حتى ترد الصاع صاعين ، وما هى أن تضمد
جراحها حتى تنزل معركة جديدة فى سبيل حماية شرفها وكرامتها .
ودل التتار بقوتهم وانتصاراتهم ، حتى كانت د عين جالوت ،
حيث واجهوا أول هزيمة على يد الجيش العربى الممتزج :
المصرى السورى .

يقول شيخ المؤرخين د ابن الأثير ، وهو يصف زحف التتار
من أواسط آسيا على أرض العرب .

د لقد بقيت عدة سنين معرضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً

لها ، كما ما لذكرها . فأنا أقدم رجلا وأؤخر أخرى . فمن الذى
يسهل عليه أن يكتب نعى الإسلام والمسلمين . ومن الذى يهون
ذلك . فباليك أى لم تلعنى . وباليكى مت قبل هذا وكنت نسياً
منسياً ، إلى أن حشنى جماعة من الاصدقاء على تسطيرها وأنا
متوقف . ثم رأيت أن ذلك لا يجدى نفعا فلو قال قائل إن أهل
العالم منذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم إلى الآن لم يبتلوا بئامها
ليكان صادقا . فإن التاريخ لم يتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها .
ومن أعظم ما يذكر من الحوادث ما فعله . بختنصر ، من
القتل وتخريب بيت المقدس . ولعل الخلق لا يرون مثل هذه
الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتنفى الدنيا . وهؤلاء لم يبقوا على
أحد بل قتلوا النساء والرجال والاطفال وشقوا بطون الحوامل
وقتلوا الاجنة فإنا لله وإنا إليه راجعون ولا حول ولا قوة
إلا بالله العلى العظيم . . .

اندفعت جيوش جنكيز خان من هضاب الصين تدمر كل شىء
فى طريقها ، فطغت على التركستان وخربت ملك خوارزم
وعبرت نهر السند إلى حدود العراق ومات جنكيز خان وورثه
هولاكو الذى أخضع القوقاز وإيران ودخل العراق . وحطم
الحلقة والحضارة .

وفي خلال الأربعين عاماً والجيش المندفعة تسير من ظفر
إلى ظفر ، وقد ملا الرعب القلوب وغشت النفوس غاشية
الخوف والذعر ووصل التتار الشام فقاومت ماوسعتها المقاومة
وتدافعت الشام إلى مصر تتحد في جيش واحد لتقاوم الغزو .

وكان الناس قد تسامعوا بالأيام الأربعين ، في بغداد
وما اذقه التتار للناس بها حيث لم تنقطع المذابح والحرائق وقتل
الآلاف ونهب القصور والخزائن ودور العلم .

ووصل « كتيبة » قائد التتار إلى دمشق وعبرها مسرعا في
اتجاه مصر . . وكان النصر الذي أحرزه التتار منذ خرجوا من
أعماق الصين قد ملا قلوبهم غرورا فظنوا أن أية قوة لن تستطيع
أن تقف في طريقهم مهما عظمت .

وبالرغم من أن جميع الملابس كانت تدل على أن هذه
القوة الغاشمة ستسحق الشخصية العربية سحقا، فإن المقاومة العربية
في مصر والشام تجمعت لتقف أمام هذا الأعصار الماحق . .

ووقفت الأمة العربية وراء جيشها العربي في معركة فاصلة
كتبت صفحة جديدة في تاريخ القومية العربية .

اندفع الجيش في معركة فائقة وحطم كل الحواجز التي أمامه
وفاجأ جيش التتار قبل أن يخطو خطوة واحدة عن
الصالحيه .

كان ذلك يوم ٢٥ رمضان ٦٥٨ عندما طوت قوات الجيش
صحراء سيناء فأذهلت التتار الذين أخذوا على غرة . وبضربة
واحدة كسب الجيش نصف المعركة وتقهقر جيش التتار لأول
مرة وأخلى دغزة ،

تقدم الجيش العربي المندفع من مصر الى العمال حتى وصل
الى جبل الكرميل ، وفي عين جالوت ، في ذلك اليوم الخالد
التقى الجيشان .

كان التتار في اربعمائة ألف مقاتل ، وكان الجيش العربي أقل
من ذلك بكثير ، ولكن رجاله كانوا يحملون قلوبا عامرة بالقوة
والوطنية والايان فلم يرههم هذا العدد الضخم .

كان الجيش العربي الموحد يؤمن بأنه يصنع التاريخ ، ويكتب
مصير الشرق كله ، بل ومصير أوربا .

واقترح بعض القادة على دكتبا ، القائد الاعلى
لجيش التتار ان يطلب النجدة ولكنه رفض كبرياء وغرورا ،
فقد كان يظن ان العرب لن تفتصر .

والتقى الفريقان : الفريق المؤمن بربه ووطنه ، والفريق
المدل بكبريائه وجبروته ، ودوى نفير الحرب وقرعت الطبول
والتحم الجيوشان واعمل العرب سيوفهم فى جند التتار.. واحداثوا
نفرة دفعوهم اليها ثم اطبقوا عليهم من جهات ثلاث .

ووقف دكتبغا ، قائد التتار يقول لجنوده : تذكروا أننا
نزحف وندمر ونحطم منذ خرجنا من الصين . منذ اربعين عاما .
لقد سقطت كل عواصم اسيا تحت سنايك خيلنا وضاعت الدولة
العباسية بددا وقتلنا الالوف ونهبنا القصور وخزائن المال واقنا
من السكتب العربية حسرا فوق دجله هبرنا عليه .

ولكن الموقعة الفاصله هنا . يجب أن ندخل القاهرة وبذلك
نسكون قد حططنا القومية العربية وقضينا عليها . .

وسحرت الشخصية العربية من كتبغا الذى أراد أن يحطم الصخرة
العانية التى وقعت فى وجه البغاء والطفاء .

ولم يغن هذا عن الهزيمة الحقة التى منى بها التتار بعد معركة
قصيرة امتدت من الصباح الى الظهر ، ارتدوا بعدها الى التلال
الواقعة قرب بيسان .

وتبعهم العرب واعملوا فيهم السيف حتى هزموهم شر هزيمة

فلما انسحبوا هاربين طاردوهم وعبروا وراءهم الفرات وبذلك
انقذ جيش العرب الحضارة وحال بينها وبين الفناء. ووقى حوض
البحر الابيض بل وحمى اوربا من شر الغارات الهمجية التي ظل
يواصلها القطار منذ خرجوا من قاب اميا حتى تخطت على
حدود مصر.

عين جالوت وبيبرس

أنها ملحمة طويلة بدأها جنكيز خان واستأنفها هولاكو واتمها
تيمورلنك في خلال قرنين كاملين من الزمان ومع ذلك فقد ظلت
معركة « عين جالوت » رمزاً على انتصار العرب على التتار ، كما
كانت « حطين » رمزاً على هزيمة الصليبيين .

وقد واصلت قوات التتار اندفاعها من بند في حوالى ستين
ألفاً من المغول على خيول سريعة فوقها جنود يحملون أسلحة من
نبال غريبة يجتاحون البلاد ويلقون الرعب فى الناس ، مدفوعين
إلى التخريب والتدمير أينما حلوا .

وقد انطمست أمام هجماتهم معالم الحضارة فخطمت القصور
الفخمة ، وأحرقت المكتبات الزاخرة ، وجرت الدماء أنهاراً على
طول الطريق الذى سلكته جيوشهم .

ولما مات « جنكيز خان » خلفه « هولاكو » الذى واصل
اندفاع الموجة نحو أرض العرب . حيث هاجم أسوار بغداد وأعمل

المنجنيق فيها حتى اقتحمها مع رجاله وأهمل فيها النهب والسلب
والتقتيل .

واتجه هولاء إلى شمال الشام فاستولى على حلب وأهمل
السيف في رقاب خمسين ألفاً من سكانها ثم دخل حماه وحارم .

واتجه هولاء إلى دمشق وفلسطين حيث هزم جيشه في عين
جالوت وتبعه تيمورلنك الذي اتجه إلى أرض الغرب في سلسلة
حملات متواصلة فاستولى على بغداد . واكتسح سورية الشمالية
وفي حلب أقام عساكره نحو ثلاثة أيام يأسرون وينهبون ويقتلون
ويستبيحون كل شيء .

وهمل تيمور من رؤوس نحو ٢٠ ألفاً من سكانها العرب
وأكرات ، وأهرامات ثم اتجه إلى دمشق فاحتل في طريقه حماه
وحمص وبعليك . .

وأهمل تيمور في دمشق النهب والسلب والنار .

ولكن هل سلمت دمشق وحلب وحماه وحمص وبعليك
وبغداد والقدس لهذا الغاصب في يسر . . هيئات ! أنها دافعت
ماوسعها الدفاع ، وتراصت بأجسادها لتقابل ضربات المدافع ،
ونيران العدو ، وقدمت الضحايا .

وكانت قوة العدو الكاسحة الضخمة ، وأساليبها الهجومية
مصدراً للأرب والفرع . . ولكن الشخصية العربية ، لم تستسلم
ولم تسلم صلحا . ولم تنزل عن حقها في الدفاع والمقاومة .

أقد سقطت دمشق بعد أن دافعت عنها حامية قوامها شهرأ
كاملا . ولم تلبث بغداد أن انقضت على أعدائها فعاد إليها تيمور
يعمل السيف والتقتيل في أهلها .

ويعطى الظاهر بيهرس نموذج الشخصية العربية في أروع
مظاهر مقاومتها ، فلقد قاد كتائب العرب ليقاوم خطرهم في وقت
واحد ، هما الصليبيون والنتار . .

وأقد استطاع بفضل هذه القوة الصامدة ، أن يحقق انتصارات
باهرة ردها القـوات الزاحفة على أرض العرب من الشرق
والغرب جميعا .

كان في نضاله محققا للأمال التي عجز عنها من سبقوه ، مكمل
لرسالة نور الدين الشهيد ، وصلاح الدين الأيوبي .

ولا نبالغ إذا قلنا انه لا يقل عنها مكانة . وإذا كان صلاح

الدين قد حرر القدس من الفرنجة فان بيبرس قد اتى بالصليبيين الى البحر ، واجتث جذورهم من ارض العرب . كما اوقف ذلك السيل الترى الدافق .

وفي اربع غزوات بارعة ، قضى بيبرس على الصليبيين ، هاجم الكرك واغار عليها عند ما علم ان الصليبيين يفاوضون المغول . فزحف على حصونهم واعمل التخريب في جميع مدنهم بعد ان استولى عليها ، واستعمل الاسرى الصليبيين في تشييد حصون دمشق ، ثم اندفع بحاصر مدينة « قيسارية » التي لم تقو على الحصار اكثر من خمسة ايام وقعت بعدها في ايدي جنود العرب حصون لويس العظيمة .

وعرف « بيبرس » الذي كان يفتح المعركة على رأس جيشه - كيف يستثير حماسة جنوده فانقضوا على قلعة « ارسون » البحرية الواقعة جنوب قيساريه ، بعد ان دافع عنها الصليبيون دفاعا مستميتا خلال اربعين يوما ، فلما استولى عليها اجبرهم على هدم حصنهم المنيع بايديهم .

وعندما هاجم ملك انطاكية الصليبي مدينة حمص ارسل بيبرس حملة لمساعدتها ثم لم يلبث ان اهد غزوه الثالثة فعبر نهر

الأردن على قنطرة أمر بثشييدها ، وحاصر صفد ، واستعمل النار اليونانية في الاستيلاء على الحصن ، وأعطى لجنود الفرنجة أماناً على أن تلقى السلاح فلما رفضت القاء السلاح حين مغادرتها القلعة قتل منهم نحو ألفين ثم قام بمحاربه الرابعة فزحف بجنده على طرابلس وانطاكية بعد استيلائه على شفيش . وانقضاضه على يافا ، فحرب البلاد التي حول طرابلس . وهاجم انطاكية ، واسرحاكم المدينة ، وألح على أسوارها بالهجوم ، ثم تسلقها واقفل أبوابها على من فيها وذبح أكثرهم . وأشعل في القلعة النيران فامتدت منها إلى المدينة . . هناك تقدمت جنود العرب فاستولت على دأكار ، حصن الصليبيين الواقع بين طرابلس وحمص .

كان هذا العمل الحربي الكبير ، متنفسا للعرب ، أحسوا معه بأنهم قد أضعفوا شوكة الصليبيين وانهزموا منهم ، وأحسوا بأن عليهم أن يتجهوا نحو الجبهة الأخرى . . جهة التتار الذين كان ديبيرس ، قد هادنهم حتى يجتث الفرنجة ، عندئذ زحف بجيوشه كلها وهو على رأسها لمهاجمة التتار الذين كانوا يزحفون غرباً فصار خلفهم حتى لحقهم عند نهر الفرات فاصلاهم نارا ، وأعمل معه المقاومة العربية فيهم السيوف والبنادق في موقعة هائلة ، شقت فيها شملهم وطردهم من البلاد تماماً .

ثم لم يلبث أن تعقب جيوشهم في آسيا الصغرى ، وفي أثناء ذلك أعد جيشا ضخما أتجه به نحو دكليكيا ، فانقض على حاميتها وبددها شر مبدد ، ودخل العرب المدينة دخول الظافرين القاهرين . . .

وبذلك وضعت الشخصية العربية يدها على أرضها العربية التي سلبها خصومها . . . زمنا ، كان في أيديها حصون الساحل الشمالى وقلاخ يافا وصور وعكا وطرابلس وحصون التتار ومعاقلم .

كان « بيبرس » جباراً عنيفاً على صورة أخرى غير صورة « صلاح الدين » . . . كان يأخذ أساليب الغادرين ويعاملهم بها من غير أن يخجل بالوعد المقطوع والشرف والكرامة والاباء العربى الاصيل . . .

كان لا يعرف رحمة في الثأر للعرب ، أنزل ضربات قاضية لم تقو الحصون المنيعه على مقاومة هجماته العنيفة ، فقد أعدم حاميه « انطاكية » التي بلغ عددها ستة عشر ألفاً ، وسبي من رجالها ونسائها وأطفالها نحو مائة ألف فباعهم في الاسواق .

ولما جرى تقسيم الغنائم كانت الاموال تكال كيلا . .

كما انتزع بيبرس حصن الاكراد من أيدي الفرنجة . وحصن
المرقب ، بجوار طرطوس . .

ولم يبق من مراكز الفرنجة إلا ، عكا ، التي جرى حصارها
في عهد الملك الاشرف ، حيث اندفع العرب إليها يقاتلون قتالا
داميا عنيفا استمر أكثر من أربعين يوما واستخدم اثنين وتسعين
متجنيقا في هدمها ، حتى سلت للعرب ، فاعملوا السيف في رقاب
حاميتها من الفرسان الداوية فأبادوهم جميعاً وبذلك سقط آخر
حصن للصليبيين في الشرق .

وقاومنا العثمانيين

كانت جائحة «العثمانيين» لأرض العرب ، حلاقة من أعصار
التتار والمغول، كانت نتيجة لأعمال السفك والتخريب الهائلة التي
استمرت بصورة بربرية أكثر من قرنين من الزمان .

ولعل «أرض العرب» لم تعرف من أساليب القهر والظلم
والاعتناء صورة أشد ظلاما من هذه الصورة ، كان حكام
العثمانيين أقسى ما عرف العرب حتى لتظل أبد الدهر مثلا في
الفسادة والحوار .

ولم يهزم العرب بالحرب ، وإنما هزموا بالتآمر ، هكذا
هزموا في معركة مرج دابق ، وفي التل الكبير ، وفي معركة
فلسطين . .

أنه أحد أمراء المماليك، كان ناقما على السلطان الغوري ففر إلى

(١) أغسطس ١٣١٦ - رجب ٩٢٢

القسطنطينية ، ونقل إلى سليم الأول أخبار مصر واحوالها ،
وأطلعه على قواتها واسرار دفاعها .

ولما استقهرت البلاد النكبية خرجت في قواتها إلى دهرج
دايق ، بقيادة الغورى حيث بلغ شمال الشام بجيشه ليرد عادية
الغزاة ، ولكن الغورى هزم بعد دفاع باسل ، ودامته سنابك
الحيل المغيرة البربرية ، وبالقرب من حلب . وانتصر العثمانيون
لتفوقهم في المعدات والمدافع ، ودخل السلطان سليم حلب ثم زحف
إلى مصر بعد أن قدم العرب خمسة وعشرين ألف شهيد دافعوا
عن أرضهم ببسالة وانتثر دمههم على ثراها ..

وتقدمت قوات أخرى من مصر وسوريا بقيادة طومان باى
وقاوموا الفاتح بحماس وقوة على حدود مصر ..

وتدافع العرب في مصر إلى إقامة المتاريس وحفر الخنادق ،
وغرس الأوتاد ، وسد الحواري ، وجمع الحجارة على سطوح
المنازل وتكدس الأخشاب في الميادين لاضرام النار فيها .

.. لقد هزم طومان باى ، ولكنه دافع عن العاصمة العربية
الاولى ومعه رجاله ، جلدأ مستبسلا ، مما اضطر السلطان العثماني

إلى أن يقف عند مشارف المدينة ، وأن يتقدم خطوة خطوة ،
فقد كان يلقي المقاومة من شارع إلى شارع ، ومن حارة إلى حارة ،
ومن باب إلى باب .

ولم تكن النساء أقل من الرجال دفاعاً ، فقد كن يهرسن
الرجال على القتال ، ويلهين المشاعر في النفوس ، ويلقين الزيت
المغلي على العدو من نوافذ البيوت ، كما يلقين الحجارة المحمأة من
فوق السطوح ، وقد سقط خمسون ألف شهيد في سبيل الدفاع
عن القاهرة .

ولم تياس الشخصية العربية ، مثله في طومانباي ، فقد اتجه
إلى الصعيد ليستعد لجولة أخرى ، حيث مضى يمد نفسه لموقعة
أخرى . .

ولكن الغزاة البرابرة انقضوا على القاهرة كالضواري فأقمعوا
في سكانها السفك الذريع ، وأمضوا في الآمنين القتل والهلاك
والنهب . . ودامت المذبحة أياماً ، . . ولم يكن هذا غريباً .

وعاد طومانباي بجيش جديد إلى مقربة من الجزيرة محاولاً
انقاذ الوطن مرة أخرى ، ولكنه هزم للمرة الخامسة وظفر به

المغفرون فأعدم على « باب زويلة » وظل فترة من الزمن معلقاً ..
ولكن طومان باي لم يسلم نفسه ، بل سلمه جماعة من أعدائه ،
وقد اعترف السلطان العثماني بما أبداه من شجاعة وأقدام ..

وقد كان طومان باي واحداً من هؤلاء الرجال الذين دافعوا
عن هذه الأرض ، واستشهدوا في سبيلها مؤمنين بها ، وإن كانوا
قد هزموا بفعل الخيانة فانهم قد أدوا واجبهم وتركوا دمهم
يثير في الشخصية العربية روح الانتقام والتحرر .. ويؤجج في
الروح العربية غريزة الثأر واستعادة الحق المسلوب ..

كان العثمانيون في هذه المعركة الدامية الخائنة المكشوفة
إنما يحاربون الشخصية العربية ، ويطمعون في القضاء عليها ..

أما المماليك الذين حاربوا العثمانيين فقد كانوا عرباً مدفوعين
بذلك التيار الكهربائي الصاعق الذي ملأ أرواحهم ودفعهم
بقوة ..

ولكن العثمانيين لم يستطيعوا أن يحطموا الروح العربية
أو يقتلوا ، قد يكونون انخنوها بالجراح فترة من الوقت ولكنها
لم تلبث أن أعلنت استقلالها الواضح وشخصيتها العارمة . ولم يكن

الوالى العثمانى عندها الا جاييا للضرائب . . وبقية لها روحها
تتمثل فى أدبها وثقافتها وموقفها من الاحداث ..

وهى التى أخرجت من بعد قوى التحرر والمقاومة بمثابة
فى دعوة قلب الجزيرة العربية ونهضة مصر . . . ومهما كانت المطامع
التى وراء حركة محمد على فإن القوة كانت تحمل اسم العرب .
وكانت تتناول بلسان العرب فى جوانب المنطقة زاخرة منتفضة
« هذا الجيش الذى سار تحت قيادة ابراهيم باشا ليحرر سوريا
من الظلم العثمانى كان يسمى نفسه الجيش العربى » .

ولقد كانت الضربات التى وجهها الجيش العربى للعثمانيين ،
هى الثأر الذى عاش فى أعماق النفس العربية ولم يمت ، حتى كانت
حرب الاناضول رداً على عدوان السلطان سليم .

وقد أذهلت هذه الضربات العثمانيين لانها وجهت إليهم
فى فترة ضعف شديدة تماماً بنفس الفترة التى كانت تمر بالارض
العربية قبل ذلك بثلاثة قرون كانت حملة الاناضول عام ١٨٣١
رداً على مرج دابق عام ١٥١٧ .

ولقد كشف هذا الجيش العربى الذى كانت تدفعه مطامع

محمد على عن بسالة الشخصية العربية في ميدان الحرب بصورة
اذهلت الباحثين . وأدهشت المؤرخين ، فقد سارت الشخصية
العربية ، مرة أخرى على هذا الساحل العربى مارة بمحصر وحماه
وحيفا ويافا لتحررها من العثمانيين ، على نفس مواقع الآباء
والأجداد فى معارك تحريرها من الصليبيين مرة ومن التتار
مرة أخرى .

لقد صبت قوات الجيش العربى التى كانت مطامع محمد على
تدفعها - صبت النار على العثمانيين فى معارك ضخمة متعددة ،
وكبدتهم خسائر فادحة ، وردت بذلك ثارها فى موقعى قونية
ونصيبين من موقعى مرج دابق والقاهرة ، فانهشت روح الغورى
وطومان باى ، والشهداء الذين قدموا دماءهم فداء لأرض
العرب .

وغنم جيش العرب من العثمانيين غنائم زادت كثيرا من
الاسلاب التى انتزعها السلطان سليم حين خرب مساجد القاهرة
ودمق وجردها من آثارها الخالدة ، ونقل نفائسها الفنية
إلى القسطنطينية .

لقد قضت معركة نصيبين ، على قوة العثمانيين الحربية .

وكان وقع الهزيمة عليها الباشديدا ، لانها لم تكن الهزيمة الاولى
أمام جيش العرب ، . وعاش السلطان عبد المجيد لحظات الألم
الصاعق الذى اذاقه العرب له اقام ما اذاقهم السلطان سليم .
وانتهت المعركة بان زلزلت دعائم عرشه . وزاد من أثر ذلك فى
الجيش العثمانى مرارة وظلاما أن تقدم الاسطول التركى ليعلم
نفسه إلى الجيش العربى فى الاسكندرية فى خمسين سفينة حربية
تقل نحو ثلاثين الف مقاتل . وبها ثلاثة آلاف مدفع .
وهكذا ردت الشخصية العربية اعتبارها مرة ثالثة .

الشخصية العربية

في معركة المقاومة

ولم تلبث الشخصية العربية أن دخلت مرحلة المقاومة في أعنف معاركها ؛ انها معركتها مع الغرب الاستعماري الذي زحف على الارض العربية عام ١٨٣٠ وامتد زحفه من الجزائر إلى مصر إلى أرض الامة العربية كلها ..

في هذه المعركة ظهرت قوة الشخصية العربية واضحة وهي تدافع عن كيانها ومصيرها ، عندما أعد الاستعمار خطته لسحقها وتغيير ملامحها ؛ هنالك قاومت مؤامرات التغريب والتجنيس والتجزئة وبعث الحضارات القديمة والوطنيات الضيقة وقد فشل الاستعمار في مؤامراته وانتصرت الشخصية العربية .

إنها معركة جديرة بأن يفرد لها كتاب خاص يصورها منذ
يومها الأول حتى يوم الفجر الذي أشرق على الأمة العربية يوم
ظهر رائد العرب (جمال عبد الناصر) فكان بحق رمزاً
على الشخصية العربية في أبرز معالمها وأكمل ملامحها ..
أبور الجندی

طبع
بمطابع الدار القومية
٥٩ شارع رمسيس
ص.ب ٢٣٩٨